

اقرأ

عباس خضر

غرام الأدباء

دار المعارف بمصر

غرام الأدباء

فهرس الموضوعات

١٩-٥	طه حليم	١
٣٤-٢٠	توفيق الحكيم	٢
٤٩-٣٥	عباس العقاد	٣
٦٦-٥٠	محمود نيمور	٤
٨٦-٦٧	أحمد الزيات	٥
١٠٦-٨٧	محمد فريد أبو حديد	٦
١٢٥-١٠٧	محمد سعيد العريانه	٧
١٤٠-١٢٦	عادل الشناوي	٨
—	— انتهى	

عباس خضر

غرام الأدباء

١٥٧

اقرأ

دار المعارف بمصر

١٩٥٦

اقراً ١٥٧ - ١٩٥٦ سنة ١٩٥٦



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

طه حسين

نعود إلى الفتى الحائر في أيامه الأولى ، حينما كان يضطرب بين «كتاب سيدنا» وبين المجتمع في المدينة التي نشأ بها في صعيد مصر ، نعود إليه لنلمس نبضات قلبه إزاء الجنس الآخر . . . المرأة ! وقلب الفتى هو قلب فنان ولا شك ، عرفناه كذلك من أحاسيسه المرهفة ومشاعره الرقيقة التي حدثنا بها عن أيامه تلك في كتابه «الأيام» ، ولا أريد أن أتبع من تلك الأحاسيس والمشاعر إلا ما يمس موضوعنا : وهو حب أديبنا الكبير ، أو قل الآن : فتانا الصغير . وأعني حبه للمرأة . هذا هو الفتى يتقدم نحو طور اليقظة ، وقد حفظ القرآن وأصبح له شأن في «الكتاب» بحيث يعهد إليه «سيدنا» بتحفيظ «عثمان» ابن المأمور الذي أتى به والده إلى الكتاب ليحفظ القرآن تمهيداً لإلحاقه بالأزهر ، وصار فتانا صديقاً حميماً لعثمان ولأخيه محمود ، يذهبان معه إلى منزله ، ويذهب معهما إلى منزلهما الأنيق الذي تتلوى على سوره فوع اللبلاب وتتصدره حديقة عريضة . . . يحدثنا في قصة «أديب» أنه كان يقصد تلك الدار ، وليس همه عثمان ولا محمود ، فإذا

جلس في حجرة الصبيين التي تتقدم البيت لا يلتقى إلى صاحبيه إلا إحدى أذنيه ، أو بعض ما يستطيع أن يلقيه منهما ، فأما الأذن الأخرى فمرسلة داخل الدار ومعها نفسه كلها ، يريد أن يسمع صوت عزيزة وأمينة . . . أختي عثمان ومحمود ، ويعد نفسه أسعد الناس أن أتيح له الاستماع إلى الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرة في الغصن المورق اللدن . فعزيزة فتاة ناهد تلعب مع الفتى ومع أخويها ، وقد يضحكها ما يخوضون فيه من الحديث ، فإذا ضحكها يضطرب في الحجرة مشرقاً صافياً مضيئاً كأنه البلور . . . أما أمينة فقد نيفت على العشرين وجاوزت طور اللعب ، وقد عادت إلى أسرتها بعد أن طلقها زوجها حزينة هادئة الصوت ، ولكن صوتها الهادئ يثير في قلب الفتى قلقاً لا يتبين أصله ولا سره ، وهو يخافه ويحبه معاً . وهو لا يدرى أى الصوتين أحب إليه ، لأنه يحب الصوتين جميعاً ويألف الأختين جميعاً ، ويجب أن ينعم بما تثيران في نفسه من عواطف حادة مبهمّة غامضة . وهذا طيف آخر يحدثنا عنه في الجزء الأول من « الأيام » عرض له حين هبط المدينة رجل مطربش يحفظ القرآن ويجوده ، ليتولى عمله فيها مفتشاً للطرق الزراعية ، وقد اتصل بوالد الفتى ، ثم عرض عليه أن يجود لابنه القرآن على طريقة حفص التي

تعلمها في الأزهر قبل أن يلحق بمدرسة الفنون والصنائع .
 قضى الفتى سنة كاملة يتردد على بيت المفتش ، يدفعه
 إليه حرصه على التجويد وإعجابه بالرجل ، ولكن هذا الدافع
 كان عمره شهرين ، استجداً بعدهما دافع آخر كان يجذبه إلى
 بيت المفتش قبل الميعاد ليظفر بساعة أو بعض ساعة يتحدث
 فيها إلى فتاة لم تبلغ السادسة عشرة تزوجها المفتش وقد جاوزت
 سنه الأربعين . أخذت الفتاة تتحدث إليه وتسأله عن نفسه
 وعن أمه وعن إخوته وعن داره ، وأخذ الفتى يجيبها مستحيماً ،
 ثم متبسطاً ، واتصلت بينهما مودة ساذجة كانت حلوة في نفسه
 لذينة الوقع في قلبه . وكانا يتحدثان ، ثم يستحيل الحديث
 إلى لعب كلعب الصبيان لا أكثر ولا أقل ، ولكنه كان لعباً
 لذيداً ، ولا بد أن الفتى قد حمد لأمه أن سعت في التعرف
 إلى هذه الفتاة بعد أن قص عليها أمرها ، ودعتها إلى البيت
 كي تذهب عنها الوحشة التي تجدها طفلة زوجت من شيخ
 لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد في المدينة .

وبعد ذلك يرحل الفتى إلى القاهرة حيث يطلب العلم
 في الجامع الأزهر مقبلاً عليه في أول الأمر ، ثم ضائقاً به
 عند ما تنشأ الجامعة المصرية ويسرع إليها ويمجد فيها ألواناً
 وآفاقاً أخرى من العلم والأدب . وهو بين هذا وذاك مجد في

الدرس والتحصيل . ويعرض له في خلال ذلك طيف من نوع آخر ، هو طيف خنشور ولكنه يملكه ويستأثر به فلا يسمح لأى طيف لطيف أن يطرق باب قلبه .

ذلك هو أبو العلاء المعرى الذى أعرض عن المرأة وكرس جهده للدرس والتأمل والأدب . وأعلن أنه لن يقتنى أثر أبيه فيجنى على ولد يخلفه في هذه الحياة . وتأثر صاحبنا كل التأثر بشيخ المعرة وحزم أمره على أن يكون كأستاذه فيكرس كل جهده للدرس والتحصيل والعلم والتعليم .

ولكن طبيعة طه حسين تختلف - فيما أرى - عن طبيعة أبي العلاء كل الاختلاف . اشتبهت الظروف الخارجية بينهما ، فأخذ طه حسين نفسه بمثل ما أخذ به المعرى نفسه ، إذ اضطره إلى ذلك إحساسه المرهف ، واستبدت به العدوى من معاشرته في دراسته وتعمق أطواره ، فاعتنق رأيه وربط بينه وبينه برباط خيّل إليه أنه صالح له ، ولكن طه حسين في حقيقة نفسه لا يميل إلى العزلة ولا يحب الانقباض ، كما كان يميل ويحب أبو العلاء ، وإنما هو رجل اجتماعى يحب صحبة الناس ومشاركتهم فيما يحبه ويرضاه ، ولست أستدل على ذلك بما آل إليه بعد ذلك من تبدل سأصل إليه في هذا المقال ، ولكن الدليل هو نفس ما كان عليه في علاقاته وتنقلاته وهو

على تلك الحال الأولى . ويحتاج ذلك إلى كلام كثير لا أريد أن يصرفنا عما نحن بصدده الآن من موضوع الحب .

ولذلك أستقيم على الطريق باحثاً عن الأطياف الأولى التي عرضت في حب أديبنا الكبير ولا أزعم أنني أستقصيها كلها ، وإنما أتحدث عما وصل إليه اجتهادي في البحث عنها .

هذا طيف رابع . . . هو « فرند » الخادم الحسناء في « فندق جنيف » بمرسيليا لا أريد أن أفترى على أديبنا أنه لقيها أو تحدث إليها ، وإنما حدثه عنها صديقه بطل قصة « أديب » في رسائل بعث بها إليه من مرسيليا ، وقد افتن صديقه في وصف حديثها وابتسامتها وجهالها ورشاقها وخفة روحها حتى قال عنها فيما قال : « ومضت مسرعة لا تمشي على الأرض وإنما تمشي في الهواء » ، وكان أديبنا الشاب المجد يرجو أن يتاح له ما أتيح لصديقه فيعبر البحر كما عبره ، فكان يريد أن يذهب إلى باريس كما ذهب أبو العلاء إلى بغداد ، ثم يعود كما عاد ، فيعكف كما عكف ، فلما قرأ رسالة صديقه خطر له أنه قد يمر بمرسيليا فعزم على أن يجتنب المقام فيها إلا ريثما يحمله القطار إلى باريس حتى لا يعرج على فندق جنيف الذي تعمل فيه « فرند » .

ولكن . . . ليسمح لنا أستاذنا الكبير أن نتنحنح

قليلاً . . . إذ نراه — عند سفره وفي غفلة من أبي العلاء — يستأنى بمرسيليا ويعرج على فندق « جنيف » ، لعله يلتقى هناك « فرنند » ولكن الطيف الذى لا يمشى على الأرض كان قد طار فى الهواء . . .

وما أظننى بحاجة إلى أن أقول إن هذا الطيف الرابع كان خيالياً بحتاً ، فهو لم يعرض للأديب الشاب إلا مذكوراً أو موصوفاً فى رسالة ، وإن كان الشاب نفسه حاول أن يجر به . . . أما الأطياف الثلاثة الأولى فقد كان شأنه معها كلعب الصبيان ، ولكن الفتيات الثلاث كن يحدثن فى نفسه لذة وسروراً ، وكن يبعثن فيها قلقاً وعواطف حادة غامضة مبهمه . ولعل لضيقه بالبيئة وتطلعه إلى الحديد شأناً فى ذلك ، فقد كن جميعاً قاهرات ذوات مرح ، وفى حديثهن عنوبة ، وكان هذا كله شيئاً جذاباً أسره وخلق لبه ، ولكنه مر بسلام .

ولا أظنه فى القاهرة قد خلا من هذه الأطياف . ونحن نراه وقد صار كاتباً شاعراً . يكتب وينظم ، وتنشر له « الجريدة » و « مصر الفتاة » حوالى سنة ١٩١٠ — نراه يكتب فيما يكتب ، عن مسائل الحب ، ويدفع عن الحب المنكرين له ، ويكتب أنه يرتاد المسارح والملاهى ويستمتع إلى المغنيات والممثلات فيعجب بهن .

وكان طه حسين ينظم الشعر في مطلع حياته الأدبية ،
ومن ذلك قصيدة غزلية عنوانها « ليت للحب قضاة » نشرت
بجريدة « مصر الفتاة » يقول فيها :

شف قلبي ما يعانى من تباريح الهوى
يعشق الحسن ولكن ليس يحظى بالوصال
أنا من وصل حبيبي بين صد ونوى
من عذيري من بنخيل ضن حتى بالخيال

ولم أستطع أن أعرف هل كان لتلك « التباريح » باعث
لها في الواقع ، فكان هناك حبيب يصد ويضن حتى
بالخيال . . . أو هو شعر تقليدى من قول الذين يقولون
ما لا يفعلون .

قد يكون باعث ذلك الغزل « أطياف » أخرى في القاهرة ،
عرضت له هنا أو هناك ، فنبض لها قلبه ، وقد يكون الباعث
شيئاً آخر وحده أو مع تلك « الأطياف » ، ذلك الشيء هو
ضيقه بالحياة الأزهرية وتطلعه إلى آفاق جديدة ، وهو الأمر
الذى دفعه إلى مناقضة التزمّت وطرق موضوعات تعاكس تقاليد
تلك البيئة ، ومن هذا ما كان يكتبه عن ارتياده للمسارح
والملاهى وإعجابه بالمغنيات والممثلات . ولا أجد إلا هذا

تفسيراً لتحوّله إلى العكس بعد أن لحق بالجامعة المصرية القديمة وجد في الدرس بها . فقد تبدلت مشاعره ، وصار يشعر بحياة جدية جديدة أقبل عليها وأحبها فأزالت من نفسه ذلك الشعور ، وهنا جاءت المفارقة التي تتمثل في ذلك التحوّل ، فقد داخله الجلد وهو طالب في الجامعة ، وكان من هذا الجلد تأثيره بأبي العلاء المعري وعزمه على أن يحيا حياة مماثلة لحياة .

وذهب الأديب الشاب إلى باريس ، عقب الحرب العالمية الأولى ، مبعوثاً مع رفاقه من قبل الجامعة المصرية . وهناك أتيح للشاب العلائي ما لم يكن في حسابانه قط ، أتيح له الحب الذي محا أفكاره العلائية ، وبدد عزله وانقباضه ، وبعث فيه روحاً جديداً ، أو قل أزاح عن جوهره « ورق السلوفان » الذي لففته به فلسفة أبي العلاء وتشاؤمه ، فبدأ على حقيقته : طه حسين الذي شغل الناس وازدهرت به المجتمعات .

تعرف الشاب في الجامعة المصرية بالفتاة « سوزان » التي اقترن بها بعد أن أتم دراسته . تقدم منها على استحياء . كى تساعده بالقراءة على أعباء الدرس ، فقبلت ورحبت ، وأقبلت عليه بحنان ولباقة لم يعهدهما في امرأة من قبل . كان في طفولته يشكو من عطف ينحصر به والداه ، ومن إهمال يمزجانه بالرفقة واللين ، وكان يضايقه من إخوته وأخواته احتياط

في معاملته ، لأنه يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً بشيء من
الازدراء . فلم يكن يخطر له أن يلتقى مثل هذا الحنان الذي
وجده من فتاته خالصاً صافياً ، طلعت شمسها على ليل أبي
العلاء الذي خيم في نفسه ، فلم يلبث هذا الليل إلا أن جلا
إلى غير رجعة .

وقضى الشاب في باريس سنتين دارساً مجدداً في ظلال هذا
الحب الذي حفظ نقاءه بالاتفاق على الزواج . وبعد هاتين
السنتين استدعت الجامعة المصرية طلابها من باريس لأنها
لم تجد ما تنفقه عليهم ، فعاد الشاب إلى مصر حيث مكث
بها ثلاثة أشهر ، حتى استطاعت الجامعة أن تدبر أمرها وتعيد
بعثها إلى فرنسا ، وأحس الشاب في هذه الفترة لأول مرة في
حياته أن له همماً جديداً يشغله مصباحاً وممسياً ، ويؤرقه بين
الإصباح والإمساء ، ولم يكن به قبل ذلك اهتمام بغير الدرس
وأن يبلغ فيه ما يريد . وصار عليه بعد ذلك أن يتم دراسته
ليعقد قرانه ويأخذ نصيبه من الدنيا ، لا ليزور عنها ويعتكف ،
كما ازور واعتكف أبو العلاء .

ويقص علينا هو — في مقال نشر بمجلة الهلال — قصة
ذلك الحب الكبير ، يقول :

« كان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر مايو سنة ١٩١٥ »

فى مدينة مونبليه ، فى وقت يقع بين السادسة والسابعة مساء ،
 عند ما طرق باب غرفتى ، ودخلت منه فتاة تصحبها أمها
 فسلمت فى استحياء ، وأخذنا فيما كنا قد التقينا له من حديث ،
 كنت أول أجنبي تراه هذه الفتاة ، وكانت أول فتاة تزورنى ،
 وقد نظمنا مواعيد نلتقى فيها إذا كان المساء من كل يوم فنقرأ
 ما شاء الله أن نقرأ من أدب وفلسفة وتاريخ . واتصل لقائنا
 شهرين كاملين فى المساء من كل يوم ، نقرأ لى ونتحدث أحياناً
 حتى قام بينى وبينها ود عقلى خالص . ثم مضى بها الصيف
 إلى حيث يصطاف الفرنسيون من أعالى الجبال وسواحل البحر ،
 وبقيت أنا فى تلك المدينة ، أقرأ الأدب الفرنسى مع غير
 هذه الفتاة . ولكنى لم أكن أسمع صوت قارئتى ، وإنما أسمع
 صوت صديقتى . ثم يريد الله أن أعود إلى مصر يائساً بائساً ،
 وتعود هى إلى باريس ، ولكن الكتب تتصل بيننا حتى تتاح
 لى العودة إلى فرنسا ، فإذا أنا أعدل عن مونبليه إلى باريس ،
 لأن السوربون فى باريس ولأن « سوزان » فى باريس أيضاً .
 « ثم أبلغ باريس وألقى صديقتى ، وشهد الله ما افترقنا
 بعد هذا اللقاء إلا كارهين . كنا نلتقى إذا أصبحنا ونلتقى إذا
 أمسينا ، ونقضى شطراً من الليل فى صحبة أمها وأختها ، لأنى
 اخترت المقام فى أسرتها . على أنى قضيت فى سنة ١٩١٦

أشهرًا ليس بيني وبينها إلا ما يكون بين المعلم والمتعلم ، وبين الصديق والصديق ، ثم لم يلبث الحب أن اتخذ سبيله إلى نفسي ، فكنت أسمع صوتها وهي تقرأ لي فأشغل بهذا الصوت عما كان يحمل إلى من الألفاظ وعما كانت تدل عليه هذه الألفاظ من معان . ثم يأبى هذا الحب إلا أن يعلن نفسه ، ولكنه لا يلتقي صدى إلا أن يكون هذا الصدى رفقا وعطفاً وإشفاقاً ، والحب لا يسأم ولا يعرف الفتور أو الإخفاق ، ولكنه يلح حتى يظفر أو يفنى صاحبه . وقد ألح حبي وأسرف في الإلحاح . واضطرت صديقتي إلى أن نفرق . فتركتني في باريس ومضت هي مع الصيف إلى الجنوب .

« فيا لها أسابيع تلك التي قضيتها في باريس لم أعرف فيها راحة ، ولا نعمة ، ولا أمناً ولا هدوءاً . والكتب مع ذلك متصلة بيننا ، ثم ينتهي إلى كتاب منها تدعوني فيه إلى أن ألحق بها حيث تقيم .

« أحبب إلى بهذه القرية الريفية من قرى الجنوب . هنالك أعلنت خطبتنا في مساء يوم من الأيام . فلما أصبحنا بدأنا ندرس معاً مقدمة ابن خلدون ، ونستعد معاً لتهيئة الرسالة التي سأقدم بها لامتحان الدكتوراه .

« وقضينا عاماً كاملاً خطيبين صديقين ، ندرس الأدب

والفلسفة والتاريخ واللاتينية ، وفي اليوم التاسع من أغسطس سنة ١٩١٧ حين أوشك النهار أن ينتصف ، أتم الله نعمته على وجعل لي من « سوزان » نوراً بعد ظلمة ، وأنساً بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس .

ثم جاء الزوجان إلى مصر عقب ثورة سنة ١٩١٩ ، استأنفا فيها حياتهما الزوجية ، محبين متعاونين في السراء والضراء . وقد هيأت له أسباب الراحة والاطمئنان في حياته الخاصة وشاركته في آلام نفسه وأمانها ، وكانت خير معين له في فترات شديدة من حياته ، إذ كانت تحاول دائماً أن تثبت فيه الصبر والشجاعة ، وتربت إحساسه المرهف ، فيمر بالشدائد كريماً جلدأً ظافراً .

وعرف هو لها ذلك الفضل وقد أبداه في بعض ما كتب ، وعبر عنه بإهدائه إليها بعض مؤلفاته ، فمثلاً أهدى إليها كتابه « قصص تمثيلية » بالعبارة الآتية :

« إلى زوجي التي جعل الله لي منها نوراً بعد ظلمة ، وأنساً بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس ، أرفع هذا الكتاب . »
وقد كتب في آخر « الأيام » يخاطب ابنته فيذكر لها طرفاً من ماضيه ويقرنه بما آل إليه ، وينسب الفضل في ذلك إلى قرينته ويقول :

« لقد حنا يا ابنتى هذا الملك (زوجته) على أبيك ،
فبدله من البؤس نعما ، ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ،
ومن الشقاء سعادة وصفوا . ليس دين أبيك لهذا الملك بأقل
من دينك . فلتعاوننا يا ابنتى على أداء هذا الدين وما أنتما
ببالغين من ذلك بعض ما تريدان . »

ولو كتب طه حسين الجزء الثالث من « الأيام » لكان
كله من نصيب هذا الملك ، ولقرأ الناس فيه أروع آيات
الحب والوفاء . ألا ليته يفعل !

وإذا كان من الحقائق الأدبية المعروفة أن الكاتب كثيراً
ما يتقمص أشخاصه الذين يتحدث عنهم فنحن نلمس أثر
هذا الحب فى كثير مما كتبه فى القصص . وأكاد أرى طه
حسين فى شخص « شهریار » فى قصة « أحلام شهرزاد » فقد
وصف حب شهریار لشهرزاد وحبها له وعنايتها به ، وصفاً
مشبهاً لظروفه إذ جعل شهرزاد تنقل الملك شهریار ، كما
نقلته « سوزان » من حال إلى حال .

وقد عنيت بتتبع ما كتبه طه حسين فى علاقات الأزواج ،
فألفيته يقدس هذه الرابطة ويصور شناعة تفككها ووهن
أسبابها .

وما قصة « أديب » إلا مأساة رجل لجأ إلى تطليق زوجته

ليستطيع السفر عزباً في بعثة الجامعة . لقد صور طه حسين هذا العمل في أبشع صورة ، وتبع صاحبه في لهوه وعبثه بفرنسا حتى انتهى به إلى الجنون .

وفي قصة شجرة البؤس يجعل الرجل يمسك بزوجه التي تعد مثالا للدماة والقبح ، والتي جُنَّتْ ، والتي علم أنها في بيته غرس للبؤس ينمو ويتفرع ويؤتي الحنظل من ثمراته . ويحرص عليها مع ذلك كله . ويستعين المؤلف على هذا التصوير بالسلطة الروحية التي يسلطها شيخ الطريقة الصوفية على الزوج البطل .

حتى القصص التمثيلية التي اختارها من الأدب الفرنسي وتناولها بالنقد والتحليل ، نراه قد توخى في اختياره هذا النوع الذي تعرض فيه حياة الأسرة عرضاً يظهر فيه الحرص على السعادة الزوجية وتجنب سفنها طغيان أمواج الشر والفساد . وأستطيع بعد ذلك أن أجزم بأن حب طه حسين قد تبلور في حياة الأسرة وساعده على ذلك نفوره من الإثم والخطيئة ، وهو يرى أن الأمر في ذلك لا يقف عند الدين ولا عند الكفر والإيمان ولا عند رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والأخلاق ، وإنما هو — كما يقول في « أديب » بعد ذلك — : « يتجاوز هذا كله إلى شيء لا أدري كيف أصفه

ولكن صورته تقع في نفسى موقعاً سيئاً ، فقد ينخيل إلى أن
الإنسان المتحضر المثقف خليق ألا يتجرد ولا يعرى حتى أمام
نفسه إن وجد إلى ذلك سبيلاً . »

توفيق الحكيم

الحبيبة الأولى لتوفيق الحكيم ، هي « الأسطى لبية شخلع »
 العالمة ، وكان الفنان الصغير في السادسة من عمره . . . وقد
 اندمج في فرقة العالمة وصار واحداً من أفراد « التخت » .
 كانت تجول في نفس الصغير مشاعر مبهمة تدفعه إلى
 أن « ينحشر » بين العوالم ويأكل ويغنى معهم ، حريصاً على
 اعتباره « سنيداً » كحفيظة ونجية وسلم العمياء ، يذهب معهم
 إلى العرس ويأبى إلا أن يحمل شيئاً من آلات الفن ، يدل على
 أنه عضو في « التخت » . . .

تلك « المشاعر المبهمة » هي ميول الفنان ، نراها تظهر
 مبكرة في عالم الموسيقى والغناء ، وفيها شيء آخر . . . شيء
 يبعث في نفسه الفرح ، وهو يجلس على الأرض مع أفراد
 الفرقة ، ناظراً إلى تلك المرأة اللطيفة الظريفة التي ناهزت
 الثلاثين ، مرتفعة في الوسط على كرسي كبير تحمل العود بين
 ذراعيها . . . كان ينظر إليها كمن ينظر إلى إلهة فوق قاعدة
 من الرخام .

كانت « الأسطى شخلع » تزور أسرة الصغير « محسن » — كما يحدثنا توفيق الحكيم فى « عودة الروح » — كل صيف مع تختها وآلاتها ، فتلبث عندهم طول الصيف أو بعضه ضيفة مكرمة تسلى الست الكبيرة المريضة « جدة محسن » التى أشار الطبيب على الأسرة أن يفرحوها . . .

ومحسن الصغير هو الذى صار فيما بعد الأديب الكبير . ومن الإحساس الدقيق الذى يدلنا على وجود قلب إنسان فنان فى ذلك الوقت ، شعوره بالعطف على « سـُـأـُـم » العمياء زميلته فى التخت ، إذ قدم إليهم فى العرس طبق من « الكسكى » ونسى الخدم أن يحضروا الملاحق ، فجعلوا يأكلونه بالشوكة : يجعلونها فى وضع أفقى . . . وحارت الضريرة ، إذ كانت تغرزها رأسياً فلا يعلق بها شىء ، وأراد باقى الزميلات أن يتركنها هكذا ليضحكن ويتسلين ، ولكن « محسن » رق لها قلبه ، فأخذ يعلمها أكل « الكسكى » بالشوكة حتى استطاعت أن تأكل مثلهم .

ونعود إلى الشعور الغريب المبهم الذى كان يحس به « محسن » نحو لبيبة شخلع ، فلم يكن الأمر كله إعجاباً وإكباراً من تلميذ لأستاذه فى فن الموسيقى والغناء على النحو الذى تذوقه أول ما تذوق على يدي الأسطى « شخلع » يصف

لنا ما يشعر به نحوها عند ما أقنعت والدته حتى وافقت على أن يصحب « العالمة » إلى العرس ، فيقول : « وفي أعماق قلبه الصغير حفظ لشخلع إحساساً أقوى من مجرد الشكر والامتنان .. إحساساً عميقاً يجهله حتى تلك الساعة .

ويتجه الضوء نحو هذا الإحساس العميق عندما بدأت « شخلع » بالرقص نصف عارية في ثوب الرقص الذهبي المضيء وراحت ترقص بجسدها اللين ووسطها يلعب كأنه قُدٌّ من الملمين والصاجات تدوى بين أصابعها المطلية بالحناء وانبهرت العيون . وكانت عينا محسن أشدها انبهاراً « ثم شعر بعدئذ بإحساسات أخرى مبهمة » .

ويسطع الضوء المتجه إلى ذلك الإحساس ، مائلاً قليلاً إلى الحمرة عند ما تفقدته وقد تقدم الليل في العرس . ثم وجدته نائماً تحت كرسيها الكبير فأخذته بسرعة بين ذراعيها وغطت وجهه بقبلااتها يقول بعد أن كبر في « عودة الروح » : « إن مر السنوات لن يمحو أبداً من ذاكرته تلك اللحظة الحلوة السعيدة التي فتح فيها عينيه ليرى نفسه بين ذراعيها يتلقى قبلااتها . »

ويسطع الضوء أكثر ، مائلاً في هذه المرة إلى الصفرة ، حين تشاء الظروف بعد ذلك أن تتزوج « شخلع » من

« الحاج أحمد المطيب » فقد أحسن محسن كتابة وخيبة آمال وشبهه
سراب يزول وشيئاً كالقنوط يحل في أعماق نفسه دون أن يدرك
لذلك أسباباً .

وماذا عسى أن تكون الأسباب غير الحب . . . ؟ وما
أظننا بحاجة إلى الخوض في آراء علماء النفس التي تعتبر الطفل
في هذا الصدد : رجلاً صغيراً ، أو امرأة صغيرة .

كان الفتى « محسن » وقد صار في الخامسة عشرة يحدث
بتلك الذكريات - في « عودة الروح » - حبيبته « سنية »
التي سنأخذ في حديثها بعد ذلك والتي غنى لها أغنية عبده
الحامولى : « قدك أمير الأغصان » وهذه الأغنية مما تعلمه على
« الأسطى شخلع » ، فسألته « سنية » عن « شخلع » وكيف
عرفها ، فحكى لها أمره معها .

وقد كان « توفيق الحكيم » جميل الصوت في صغره ، وكان
غناؤه وشغفه بالموسيقى من أسباب اتصاله « بسنية » التي كانت
تجيد العزف على البيانو . وكان من المحتمل أن يكون مطرباً
أو موسيقياً كبيراً يسحر الناس بفنه ، كما سحر « سنية » ووالدتها
التي تمثلت فيه عبده الحامولى وهو يغنى ، وكما سحر الناس بعد
ذلك بأدبه وفكره .

رأى « محسن » سنية أول مرة من ثقب الباب ، عند ما

كانت في شقتهم تزور عمته . كان جالساً مع أعمامه العزاب الذين يعيش معهم في القاهرة وتقوم على شأنهم في المنزل عمته وهي أختهم . فجاء إليهم الخادم يقول وهو يغمز بعينه مشيراً إلى حجرة العمّة ، إن عندها « ضيفة » لم يجد وضفاً لحلاوتها أدق من أن يقبل أطراف أصابعه وهرع الفتى « محسن » مع أعمامه الشبان إلى باب الحجرة المقفل ، وراحوا يتدافعون على ثقب الباب متصاحكين بصوت خافت ، وبهتوا لجمال لم يروا مثله . وكان لكل منهم معها بعد ذلك شأن . أما « محسن » فقد شغل بها كما يشغل العابد بمعبوده طار منديلها من سطح منزلها المجاور لمنزلهم ، فالتقطه وأخفى أمره . وجعل يحمله كما يحمل أهل السنة المصحف الشريف ويعلم « محسن » أن عمته تلتقي بسنية على الحدود بين السطحين فما أحب إليه من أن يصعد معها وسمع صوتاً موسيقياً حلوّاً ينادى عمته من وراء الحدود . كان نذيراً أو بشيراً بإعلان الاشتباك في الحب وبعد أن اقتنعت سنية بأن محسن « عيل صغير » سمرت في شيء من التحفظ والخفر . وحيث محسن ، فرد التحية متلعثماً خجلاً ينظر إلى الأرض ، ومد يده يبحث عن كتابه يدارى فيه خجله ، فأخفت الفتاة ابتسامه خفيفة ، ثم التفت بعينين كعيني غزال إلى كتاب محسن وسألته في دل وسحر :

— دى رواية ؟

— لا . . . دا ديوان شعر . . . مهيار الديلمي .

— حضرتك تحب الشعر ؟

— أيوه . . . و حضرتك ؟

— أنا . . . فى الحقيقة . . . أفضل الروايات ، ومع ذلك

أحب بعض قصايد وأزجال أغنيها على البيانو .

وأسرعت العمة تقول :

— ومحسن كمان يحتى . ما تعرفيش إنه بيغنى ؟ دا عليه

صوت يا سنية هانم . أنا ما حكيت لكيش إنه وهو صغير كان

اسم الله عليه بيغنى مع الأسطى « شخلع » العالمة فى « التخت » !

سنرى هذا الفتى يدأب على أمرين يبدوان متناقضين ،

هما اللباقة فى الغزل ، والحجل مع الارتباك ، أما الأولى فتدخل

فيها ولا شك صنعة المؤلف فى الحوار ، ولعلها قدرة فى الفتى

مغطاة بستار الحجل الذى نسجته البيئة فى ذلك الزمن ، نشأ

صاحبنا فى الريف ، وقد دخل مرة على سيدة فى منزلهم وهو

فى الثانية عشرة من عمره ، فسارعت بإنزال الخمار على وجهها .

ولما قالوا لها : « إنه عيل صغير » تناولت طرف ثوبها وسلمت

بيد مغطاة . . . واستقر فى نفسه من ذلك وأشباهه أن من

الأدب أن يكلم المرأة — إن كلمها — وهو ينظر إلى الأرض .

ونعود إلى السطح . . . وقد تركنا الموقف هناك يصل فيه الحديث إلى الغناء والعزف ، وما دام محسن يغنى كعبده الحامولى ، وما دامت سنية تعزف على البيانو ، وما دام محسن ولداً صغيراً ، فلا بأس أن يهبطوا من السطح إلى داخل منزل الدكتور حلمى والد سنية ، وستسر والدة سنية من غناء محسن الذى يحاكي عبده الحامولى . . . وستنكر الأم وجود رجل ، ولكن الفتاة تقنعها بأن ولداً صغيراً كهذا لا يسمى رجلاً . . .

وقفزت سنية فى خفة الغزال إلى البيانو ، ومرت أصابعها على مفاتيحه العاجية وأطلقت منها صوتاً كتغريدة العصافير ، ونظرت إلى الفتى المرتبك تدعوه إلى الغناء ، ويتردد الفتى ويلحظ نظراتها التى لا تعصى ، فيرتفع صوته مرتجفاً قليلاً بادئ الأمر ، ثم يثبت ويستقيم ويتضوع فى فضاء المكان حلواً حاراً فى نغم يؤدى لحن عبده الحامولى :

قدك أمير الأغصان	من غير مكابر
ورد خدك سلطان	على الأزاهر
الحب كله أشجان	يا قلب حاذر
الصد ويا الهجران	جزا المخاطر

وكانت سنية تصغى إلى محسن بسرور ولذة ، وتنظر إلى

سقف الحجرة مبتسمة طروباً وتردد بعض النغم في نفسها معه ،
ولكنها ما فطنت إلى أن المغنى إنما يعنيها ويفكر فيها ، وأعجبت
والدتها بعبده الحامولى الصغير فوافقت على أن يعلم ابنتها الغناء
على أصول الفن .

وشعر محسن بأن نفسه لا تتسع للسعادة التى غمرته ،
فخلا إلى منديلها الحريرى يحادثه ويلثمه ويبيوح له .
وذهب إلى المدرسة فى اليوم التالى والسرور يكاد يشب
من صدره ، ولما لقي صديقه الحميم عباس بادره بقوله :
— عباس . . . الحياة جميلة !

ونظر إليه عباس مبغوتاً ، وقال محسن :
— تعرف يا عباس إيه هى السعادة اللى بنسمع عنها ؟
إن كنت جدع صحيح تقول لى إيه هى السعادة ؟
— السعادة ؟ ! أنا عارف ؟ . . .
— ما تعرفش إمتى تكون سعيد ؟
— يوم ما أنجح فى الكفاءة .
— أنت مغفل !

ودق جرس الدخول إلى الفصول ، وقال مدرس الإنشاء
لمحسن :
— اختر موضوعاً وتكلم فيه .

فبحث محسن في خاطره عن موضوع ، وكان فؤاده مشغولاً
بموضوع واحد وكتب على السبورة : « رأس الموضوع :
الحب »

وهاج الفصل ودهش المدرس وصرخ مستنكراً :
— الله . . . الله . . . ما شاء الله ! . . امش انجر اقعد
مهلك بلاش قلة حياء ومسخرة !

وتعاون قوة الخيال مع شدة الحجل على رسم صورة عجيبة
لهذا المحب . إنه يكون لنفسه وهو بعيد عنها عالماً زائحاً بالرؤيا
والعواطف ، فإذا التقى بها وجلس معها ارتبك ونظر إلى الأرض .
عاد إلى بلده في إجازة نصف السنة تلبية لدعوة والديه ،
وهو يعزى نفسه من فراق سنية بخطاب سيأتيه هناك من عمته
تكتبه لها سنية بخطها . ووصل إليه الخطاب وقرأه على أن
كاتبت سنية وعلى أنها إنما تخاطبه من وراء ستار : ولكن لغة
الخطاب مبتذلة ، فهو يبدأ هكذا : « من بعد مزيد السلام
والسؤال عن صحة سلامتكم . . . إلخ » .

وسنية متعلمة تقرأ القصص وتطالع الكتب فلا يعقل أن
يكون هذا أسلوبها . ولكن خياله لا يرضى بهذا ، لا بد أنها
تداعبه . وابتسم لهذا الفرض : دعابة لطيفة ! ورجع يقرأ
الخطاب على هذا الأساس ، ويضحك معجباً بظرف معبودته !

ولا يكتفى خياله بهذا ، فهي قد اختارت هذا الأسلوب
ليناسب حال عمته التي أرسلت الخطاب باسمها ، ما أذكأها !
وقبل ذلك : ما أظرفها !

« فإذا كنت تحب عمتك يا محسن فلا تتأخر أكثر من
ذلك » ، إنها تعبر عن عاطفتها من خلف الستار ، ولولا الحياء
لقلت :

« فإذا كنت تحب سنية يا محسن . . . إلخ » ، وراح
يضيف من نفسه إلى العبارة الواردة في الخطاب فيقول في نفسه :
« . . . فلا تتأخر أكثر من ذلك فإن مصر بدونك
مظلمة ! » صحيح ؟ مصر بدوني مظلمة ؟ في نظر سنية ؟ !
وبعد أن يبني على هذا الخطاب من قصور الخيال ما يحلو
له يتبين — بعد عودته إلى القاهرة — أن سنية لم تكتب الخطاب
وإنما كتبه « عرضحاجي » في ميدان السيدة زينب . . . بعد
أن دب الشقاق بين عمته وبين سنية . وانقطعت الصلة بين
الأسرتين . فإذا عز الخيال على محسن في عالم اليقظة بلحاً إلى
الأحلام . . . رآها في المنام تهمس إليه :

« مش قلت لك إن كنت تحبني ما تتأخرش عن مصر
أكثر من كده ! »
ويرد عليها — في المنام — قائلاً :

« وأنا حضرت بمجرد وصول الخطاب »

ومع ذلك الخيال المفرط ، نجد صاحبنا يمعن في الحجل والارتباك معها ، فإذا سأله متلطفة :

— رايح تعلمنى إيه النهارده يا أستاذى ؟
أجابها مطرقاً متأدباً :

— زى ما تطلبي حضرتك !

وإذا أطرت غناؤه وطريقته فيه تشجع وقال :

— متشكر يا سنية هانم . . . دا من لطفك . . .

وقبلته مرة في أسفل خده في موقف حار ، ولكنه لم يرد الحميل . . . واختزن حرارته كى يصعدها في عالم الخيال بعد الانصراف . . .

فهل تنقصه المرأة أو هو يزهد في الواقع القريب ليستمتع من بعيد بعالم خالص يكونه فكره وخياله ؟ يخيل إلى أن الأمر الثانى أكثر توافراً ، وهو يتفق مع طبيعة توفيق الحكيم ، فهو يحب أن يخلق لنفسه أجواء ينعم فيها بعيداً عن الواقع ، وسيزداد وضوح ذلك من حوادث حبه الأخرى .

هذا هو فى باريس ، عصفوراً من الشرق ، ذهب إليها يطلب العلم ، ولا بد للفتى الحالم أن يطلب الحب أيضاً ، ويظهر أن الفرنسيين الذين نزل عندهم أسموه عصفوراً من

الشرق ، لأنهم رأوه شاباً نحيلاً وادعاً خيالياً ، وقد كان فعلاً خيالياً أكثر مما ينبغي ، لا بالنسبة للباريسيين فقط ، بل كذلك بالإضافة إلى الشرقيين أنفسهم

إنه يحب فتاة تجلس في شباكها تشرف على الناس بعينين من فيروز ، وهم يمرون أمامها من كل جنس ومن كل طبقة ، وهي تبتسم بين آن وآخر ، دون أن يعرف أحد سر قلبها . ليست هذه الفتاة شهرزاد ، وليست في قصر سحرى من قصور ألف ليلة وليلة ، وإنما هي عاملة في شباك تذاكر مسرح الأوديون . . . لا يريد أن يتقدم إليها بياقة من الزهر ، أو زجاجة من العطر ، أو يدعوها إلى العشاء في مطعم كما يفعل سائر المحبين هناك ، وإنما هو عصفور يلتقط الحب « بضم الحاء » على طريقته الخاصة . . . اتخذ قاعدته في قهوة أمام الشباك ينظر إلى « سوزى » ذات العينين الفيروزيتين ، ويحبه صديقه الفرنسى على أن يذهب إليها ويفاتحها بما في نفسه .

ثم يضيق العصفور بالجلوس في القهوة . الجلوس الذى طال دون جدوى وينشط للعمل على طريقته . . . فيتبع « سوزى » حتى يعرف الفندق الذى تقيم فيه ، ويتزل به في حجرة فوق حجرتها ، ويهدى إليها ببغاء في قفص على طريقته أيضاً . . . ووضع

في عنق القفص حبلا وأدلى به من نافذته حتى ركز على حاجر نافذة الفتاة . وعند ما فتحت نافذتها رأت نفسها أمام ببغاء في قفص مدلى بجبل فرفعت عينيها فرأت محسن يتسم لها وسألته عن اسم الببغاء ، فقال لها ، اسمه محسن ! وما كادت الفتاة تنطق هذا الاسم حتى صفير الببغاء وصاح :
— أحبك ، أحبك ، أحبك !

فضحكت « سوزى » وقالت :

— عجباً ! من لقنه هذه الكلمات ؟

— لا أحد . . . في « عينه نظر » ، هذا كل ما في الأمر ! والواقع أن الذى فى عينه نظر هو « العصفور » لا الببغاء .. ولعله قد اختار هذه الهدية لا لطرافتها فقط ، وإنما لشيء آخر هو أنها هدية لا تتكرر فالببغاء لا يبلى كالجورب النيلون ولا ينفد كزجاجة العطر ، ولا يذبل كالزهرة ، والأمر فى كل ذلك يحتاج إلى تجديد الشراء

وذهب الشباب ، وخيل للكاتب الكبير فى بعض أطواره أنه بحاجة إلى نبع جديد يستلهمه روائع الفن ، إلى فتاة جديدة تأنس إليها بنات أفكاره .. فكانت فتاة تقيم فى حجرة ملاصقة لحجرتة فى (بنسيون) بالقاهرة ، و بين الحجرتين باب مقفل ، يسمع ضحكاتها الرقيقة ، ويقول للناشر الذى زاره فى حجرتة :

« لو علمت أن كل ما أكتب لك وأنشر عندك منذ شهر
إنما خرج من خصائص هذا الباب ! »

وظل يقيم لها في نفسه تماثيل من ذهب ، يدير لها
« الجرامفون » ليسمعها موسيقى موزار وجعل يرقب حركاتها
ويستمع أنفاسها ، ويؤول كل ما يراه وما يسمعه منها على
هواه ، ويمعن في خياله حتى يصورها كترأ لا يقوم بمال .
ثم يعلم بعد ذلك أنها من بنات الهوى وفتيات الليل ، وعند ما
يفضى إليه صديقه بهذه الحقيقة ، يقول له : لماذا جئت
تقول لي هذا الكلام ؟ ! لأنه كان يريد أن يظل على تصوره
إياها ، ليظل يستلهمها الصفاء الذي يجري بين سطوره على
على نحو ما يحدثنا في قصة « وجه الحقيقة » بكتاب « تحت
شمس الفكر » .

ولكن هل حقاً يلهم « الحب الصناعي » فناً وصفاء ؟ وهل
الكاتب في حاجة إلى أن يستجد حباً ليكتب ويبعد فيما يتصل
بالوجدان ؟ إن العواطف القديمة لم تذهب سدى لأنها مستكنة
في الأعماق ، وهي التي توحى وتلهم ، وهي التي يستمد منها
الكاتب ، إذ يتمثل عند ما يكتب ويصور تلك الأحاسيس
والمشاعر ويضيفها على من يبدعهم من أشخاص وأبطال .
أما « الحب الصناعي » فما يجيء معه من فن فهو من

أثر النار القديمة إن كان الكاتب من ذوى الشوق القديم ،
وإلا فهو كمصدره فن صناعى زائف .

ولعلى أستطيع هنا أن ألقى ضوءاً على ما يسمى « عداوة
توفيق الحكيم للمرأة » إنه يتخيلها كما يقول ، تمثالا من الفضة
أو باقة من الزهر أو قطعة من روائع الموسيقى ، ولكنه يحب
أن تكون هذه القطعة مسجلة على أسطوانة ، ينطقها ويسكتها
بإرادته ، وهو على هذا يقدها ويكبرها ولكنه يراها أحياناً
كالطفل يلتقى من النافذة كل شىء ثمين ويجلس على حافتها
يضحك ضحكة الانتصار .

وهو يرى المرأة مخلوقاً ضعيفاً هشاً بين يدي من تحب ،
ولكنها قاسية جبارة مع غيره تحطم كل قيد يحول بينها وبين
الرجل الذى تريد ، وقد تبنى مع من تحبه ، فهي هادمة
فى ناحية ، بانية فى ناحية أخرى .

وهو يبغض قسوتها ويخشى منها الهدم والتحطيم ، ويجب
بناءها فى « صينية » من البطاطس .

وهو بعد هذا يخشى بأسها على حرите ، لأنه يتمثلها
كسجان . . . تسجن الرجل جنيئاً فى بطنها ، وتسجنه أسيراً
فى حبها ، وأخيراً تحبسه فى بيت الزوجية حيث يبقى إلى
النهاية . . .

عباس محمود العقاد

نستطيع أن نضع أصبعنا على حب العقاد لامرأة بعينها ،
 إذ كان في نحو الثلاثين من عمره ، وهو أديب شاب ناضج ،
 عرف اسمه في عالم الأدب والصحافة ، وكان من رواد الندوة
 الأسبوعية التي كانت تعقدها الكاتبة الأدبية « مى » في منزلها ،
 ويحضرها أعلام الأدب في ذلك الوقت . وكان بعضهم يحبها ،
 أو يخيل لنفسه أنه يحبها فقد كان الحجاب مضروباً على
 المرأة إذ ذاك وكان سفور الفتاة الأدبية « مى » ومجالستها للرجال -
 أمراً باهراً بهر أصدقاءها هؤلاء الذين يترددون على ندوتها .
 كان كل منهم يخلو إلى نفسه بعد انقضاء الندوة ، ويتمثل
 النظرات الحلوة والحديث العذب والجمال الفتان . . . ثم يترجم
 كل ذلك إلى غزل في قصيدة أو رسالة يبعث بها إليها . وكانت
 هي تتلقى ذلك في برود ، فإذا لقيها أحدهم لم ير منها ما يدل
 على أنه صنع شيئاً . . . فيضطر أن يحيل الغزل « التحريري »
 إلى « شفوى » فتشير إليه بإصبعها على فمها أن « هس » . . . !!
 فيهس^(١) . . . ولا يجهر بكلام .

(١) في القاموس « هس الرجل » حدث نفسه .

وبرود « مى » نحو الرجل قد لازمها حتى توفيت آنسة
أو قل إن شئت آنسا . . .

ويحدثنا العقاد فى كتابه « سارة » أنه أحب هنداً قبل
« سارة » ونفهم من الوصف وسياق الحديث ، ومن شعر قاله
فى « هند » ، ومن روايات المعاصرين والمعاشرين ، أن « هنداً »
هى « مى » .

كان حبه « لهند » - كما جاء فى الحديث - خالصاً
للروح والوجدان ، وكان حبه « لسارة » مستغرقاً شاملاً للروحين
والجسدين . كانت المرأتان على طرفى نقيض ، يصفهما بقوله :
« فإذا كانت «سارة» قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة «فهند»
قد خلقت راهبة فى دير ، من غير حاجة إلى الدير ! تلك
مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة
بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشىها
بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجواهر . الحزن الرفيع والألم
الغزير شفاعاة عند «هند» مقبولة إذا لم تكن هى وحدها
الشفاعة المقبولة ، أما عند «سارة» فالشفاعة الأولى بل الشفاعاة
العليا هى النعيم والسرور . تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها
شم النسيم .

واستطاع « شم النسيم » أن يقهر « الجمعة اليتيمة الحزينة » .
 لم يرتبط مع هند بعهد ، وإنما كان يطوف حول تماثيلها
 الصخرى الخالي من الوجدان نحو الرجل ، حتى كان آخر
 عهده بها أو بحبها قبلة على يدها ، أعادها وهي تمنعه وتنصرف
 عنه متممة هامسة : دع يدى ، ودعنى !
 وفى قرابة الستين من عمره وقف يرثيها فى حفل أقيم لتأبينها
 فى دار الاتحاد النسائى ، فقال :

تلكم الطلعة ما زلت أراها غضة تنشر ألوان حلاها
 بين آراء أضاءت فى سناها وفروع تهادى فى دجاها
 ثم شاب الفرع والأصل وغاب

أما « سارة » فحبه إياها الذى محا حب الأولى وعفى على
 أثره ، هو أعنف حب م به ، أشعله التقاء فتاة جميلة فائرة
 الأنوثة بشاب عنيف الطبع قوى الإحساس بنفسه ، هو
 العقاد . . . وفى ظهيرة حياته .

سمّاها « سارة » فى القصة التى أخرجها بهذا العنوان ، وهو
 بطبيعة الحال غير اسمها الحقيقى ، وصفها بأنها أجمل من رأى
 فى أيام فتنه وشغفه ، وقال فى وصفها إنها حزمة من أعصاب
 تسمى امرأة ، استغرقها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة . ولعلها

أنثى ونصف أنثى . ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولكنها كمرعدة الحمى وصرعة الفرس الجموح يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الإعياء والبكاء . لها فراسة نفاذة فى كل ما بين الجنسين من علاقة تفتن لما فى نفس المرأة لأنها امرأة ، وتفتن لما فى نفس الرجل لأنها امرأة .

ثم يقول : « أكبر الظن أن الفتاة على ما بها من جموح وشطط كانت وشيكة أن تستقيم وتترن لو رزقت زوجاً يوائم شوقها إلى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية . ولكنها خابت فى الزواج فشقت » .

عرفها فى بيت خائطة فرنسية ، واستحال الحديث بينهما فى هذا اللقاء الأول إلى حوار غزلى قالت فيه :

— أنت فضولى .

— ليس مع كل الناس . . .

— تحيات وغزل . . . ! وعما قريب عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك ، إلى آخر هذا الموال المحفوظ !

— ولماذا عما قريب ! الآن !

— أنت عجول ، وأنت جرى أيضاً .

— إن وعدتنى أن أجنى للصبر ثمرة فأنا أصبر من أيوب . ولم ينته هذا الحوار حتى تخلى عن صبر أيوب . . . وقبلها

بعد أن مهد لذلك بتقبيل الخائطة . وأبدت العجوز سرورها بالقبلة

أما « سارة » فلم تشتم ولم تصطنع الغضب كما توقع ، بل قالت في صوت خافت : لقد آذاني شاربك الطويل . . . وأكبر ظني أن حب العقاد « لسارة » كان نقطة البدء في عزوبته وإعراضه عن الزواج ، فقد أسعفته ولم تتأب عليه ، ثم ثارت شكوكه وساء ظنه فيها فقرّر في نفسه غدر المرأة وخيانتها . والحب صراع بين الرجل والمرأة ، فإما أن يناها أو تناله . . . يناها فلا يتزوجها ، أو تناله فتتزوجه .

كانت تزوره بمنزله في الساعة الخامسة مساء ، وقبل حلولها بربع ساعة يلزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقبها إلى منعطف الطريق وهو يحسب أجزاء الوقت بالملايين وملايين الملايين ، لا بالساعات والدقائق والثواني فإذا احتواها البيت فإن العالم ينقسم إلى قسمين لا ثالث لهما ، قسم فيه كل شيء وهو البيت ، وقسم ليس فيه شيء وهو العالم الخارجى بما فيه من قارات وبحار وما فيه من رجال ونساء .

ثم اتفقا على أن يقضيا يوم الجمعة كله في خلوة كاملة ، إما رياضة في الحلاء ، أو عكوف في المنزل من الصباح إلى المساء ، وهذا أمتع الأيام إذ يخلو لهما المنزل حتى لا طاهى

فيه ولا خادم ، ويقومان هما بالخدمة ، في يدها المكنسة ، وفي يده سكينه التخريط . . . إلخ .

ثم جاء الشك . . . شكه في خلوصها له ومشاركته غيره فيها ، فاستحال الحب إلى فتور ، واستحال الشوق والمتعة إلى ضجر وتمثيل . كما استحالت القصة « سارة » إلى كتاب درس وتحليل ، واستحالت الفتاة المليحة التي هي كل شيء في العالم إلى حيوان يُشَرَّح وتجرى عليه التجارب العلمية .

واستحالت رقة الحب إلى حملات على المحبوب تذكرنا بالحملات القلمية الشعواء التي كان يشنها العقاد على خصومه في السياسة والأدب ولا يزال يشنها مع الأدباء .

قام الشك في نفسه لعلامات وقرائن استدل بها على أنها تنصرف عنه إلى غيره . ولم يقطع بذلك حتى عهد في مراقبتها إلى صديق له أطال مراقبتها حتى أتى له بالخبر اليقين ، فكان ذلك « بشارة » سر بها إذ أنقذته من لجج الوسواس واستقرت به عند شاطئ التحقيق والثبوت .

قال لصاحبه : صدقت ، فهل بنا نحتفل بتشييعها .

وانطلقا يتمشيان في جنازة الحب الراحل . . . ولقد أسلم نفسه إلى وسواس الشك حتى أفسد أمره وكدر صفوحه ، بل قتله ومشى في جنازته . . . وذهب في ذلك

مذهباً لا يذهب به غير العقاد العنيد . وقد أطلق عليه بعض الأوقات « الكاتب الجبار » وهو جدير في موضوعنا أن يسمى « المحب الجبار » .

والتقيا مصادفة في فترة الشك ، وركبا عربة وأحس حرارة جسمها ، ولمس بضاضة عطفها ، وتلقى أنفاسها على صفحة خده وهي تميل إليه تنتظر كلامه ، ولما لم يتكلم هددته بالنزول من العربة ، فلم يعبأ بالتهديد ، ولم تنفذ هي تهديدها لعلمها بحقيقة عناده . ثم تواعدا في جفاف - وهو نادم ! - على أن تأتي إليه في الساعة الخامسة وبقيل الموعد جلس يفكر في أن يخرج ولا ينتظرها ، ولم ينفع تصور النعمة التي تسعى إليه ، لم يشفع تذكر بضاضتها واين ملمسها في المركبة وأنفاسها تهب على خده فتسرى في جميع أوصاله - فخرج من المنزل راكباً سيارة العناد .

والعجيب أنه يتعب نفسه كل هذا التعب في البحث عن شيء هو ماثل أمام ناظريه . . . إنه يبحث ليقف على حقيقة أمرها معه ، هل هي تخونه مع صاحب آخر فيقطع ما بينه وبينها أو أن المسألة مجرد وساوس وأوهام . . . يبحث عن ذلك وهو يعرف صاحبته حق المعرفة ، يعرف أنها اعترفت له بعلاقتين سابقتين مع رجلين آخرين ، واعترفت له بما كانت

تحتال به من الحيل البارة لتلقى عشيقها الأول . وإذا أغضينا عما فات وقلنا إنه لم يحاسبها على ماضيها وإنما يوجس من حاضرها أن يكون له شريك فيها ، فما القول فيما اعترفت له بأنه وقع في أثناء علاقتهما ؟ فقد قالت له في ثاني مقابلة بينهما إنها ذاهبة إلى موعد مع صديق ، ثم حكّت له بعد ذلك أنها ركبت مع هذا الصديق في سيارته ، فاقترح عليها اقتراحاً خطيراً جعل يقدم له بمقدمات مملة وهو قلق مرتجف حتى صرح بعد جهد جهيد - وهو يستغفر ويتلعثم - بذلك الاقتراح ، وهو أنه يتمنى على الله أن تسمح له بقبلة . . . ! حكّت ذلك وهي تسخر من ذلك الصديق الذي لم يأخذ القبلة أخذاً ، وانتظر أن تمنحها له منحاً .

وأكثر من ذلك أنها اعترفت له بأنها زلت في المصيف ، عقب فراق بينهما ، وانغمست في صلة غامية ، ثم جاءت إليه لتقف منه موقف المعترفة من الكاهن ، فغفر لها .

نسأل بعد ذلك : فيم الشك وفيم العذاب !
الواقع الذي لا نجد غيره أن العقاد كان إذ ذاك في فورة الشباب قوى الشعور بذاته يريد أن ينفرد بحبيبته مهما كان نوع العلاقة بينهما ، وهي على أى حال علاقة حب وليس فيه شك وإن كان قد أفسده الشك ! هو حب وإن لم يصحبه

أمل في زواج ، فالحب حقيقة إنسانية قائمة بذاتها ، أما الزواج فهو غاية طارئة قد تكون ، وربما لا تكون .

يضاف إلى ذلك أن العقاد قوى الفكر ، فهو يقلب الأمر ولا يدع وجهاً من وجوهه إلا لطمه أو قبّله . والحب كالزهرة ، تمس في رفق فيستمتع بمنظرها وأريجها ، فإن دعتها اليد القاسية تناثرت أوراقها وذهبت مع الرياح .

وبعد فقد تحدثت عن محب « سارة » على أنه « العقاد » مع أن اسمه في القصة « همام » فهل « همام » هو العقاد ؟ نعم هو بعينه ، وهل يحب ذلك الحب ويصنع ذلك الصنيع غير « عباس محمود العقاد » . . . ؟ إن كل ما هنالك لا يدع مجالاً للشك في أنه هو .

هذا صديقه الشاعر « محمود عماد » يقول له في قصيدة وجهها إليه :

أنت في الجنة ألقيت يقينا فدع الشك أو استمهله حيناً
لا تسلمها يوم تأتي أين كنت فبحسب العين أن الحسن يأتي

ويقول ما معناه : تمتع بالوردة واتق شوكرها بقفاز عند قطفها .
فيرد عليه بقصيدة يقول فيها :

وردني يا صاحبي في الورد بدع بدعها طبع ، وكل الورد طبع

طبعها كالفخ ينهاك ويدعو وبلاء النفس في مس جناها

ويقول العقاد في «سارة» إن صاحبتة كانت تزهى إذ ترى الناس يتحدثون عنه بإعجاب . وما ذلك إلا لشهرته . وكل السياق والقرائن تدل على أن «همامًا» هو «العقاد» ، ولا أرى داعياً إلى الإطالة في ذلك غير أنني أسوق الحادثة الآتية : كان «همام» و «سارة» يتنزهان في عربة حنطور بالجزيرة بعد مغيب الشمس وكان الحوذي قد غفل عن إشعال مصابيحها ، فصدمت واحداً من جماعة من رجال الضبط كانت تسير هناك ، فجذبوا الحوذي من مقعده وتبارت ألسنتهم وأيديهم في سبه وضربه ، فنزل «همام» ليصلح بينهم حتى لا يفضى الأمر إلى كتابة محضر واستدعاء شهود وما يتبع ذلك من فضيحة لـ «سارة» . فعرفه رجال الضبط لشهرته ، وسامحوا الحوذي من أجله ، ولا شك أن معرفتهم له مبنية على أنه «العقاد» الكاتب المشهور .

ويتحدث العقاد بذلك في اعتداده المعروف ، وهذا الاعتداد يبدو واضحاً في عدة مواضع فهو يصف «همامًا» بأنه موكل إلى ضروب من غرور النفس مطبوع على ألا يعلق قيمته في معارض الفخر والمباهاة على رأى إنسان من النساء

أو من الرجال وهي شنشنة نعرفها من العقاد .
 وأشعر أنني أسترسل في أمر بدهي إذا ذهبت أستقصي
 العلامات والدلائل على أن « هماماً » هو « العقاد » .
 كان ذلك الحب في ربيع حياته ، وكان هو ربيعاً متقلباً
 عاصفاً كهذا الفصل الذي نعانيه في بلادنا المصرية ، كان
 « رياح الحماسين » التي قضت على جمال « شم النسيم » .
 وانقضى الربيع بتقلباته وزوابعه ، وجاء بعده الصيف ،
 وأكبر الظن أن صاحبنا قضى صيف حياته على الشاطئ في
 إجازة من الحب العميق ، مكثفاً بملاحظة عرائس البحر
 واستلطاف من يحلو له منهن ، دون أن يخوض معهن إلى
 أعماق الهوى ، ولا بأس مع ذلك من بعض الرشاش المتناثر
 الذي سرعان ما تجففه حرارة الشمس . يقول في ديوان
 « وحى الأربعين » الذي أصدره في هذه الفترة وقد بلغ سن
 الأربعين :

غفر الذنب من بكائي عليك أنني لا أعود ما عشت أبكى
 لا يساوى—وقد تعلمت منك— نسل حوائكن دمة شك
 خير ما في النساء ساعة ضحكك

فهو يعلن توبته من البكاء على حبيبته وانه لن يعود إلى

مثلها ، فقد تعلم من تجربته أن المرأة لا تساوى دمة شك ،
وخير ما فيهن ساعة يضحك فيها مع إحداهن .

ثم أقبل الخريف وقد جاوز الخمسين من عمره وأقبلت
معه نسمة لطيفة هبت عليه من فنانة معروفة علق بها وعلقت
به على رغم الفارق الكبير بينهما فى السن ، والعجيب أن هذا
الحب الخريفى أوحى إلى أدينا الكبير أرق وأبدع ما قاله من
الشعر الغزلى ، ونراه فيه قد هدأت ثورته التشككية ومال إلى
التسامح فلم يبق مصرّاً على « سحر التفرد » كما كان فى حبه
لـ « سارة » وقد ظهر هذا التسامح فى شعره من قبل إذ قال
فى « وحي الأربعين » :

ماذا عليه إذا استوى وإذا التوى ماذا عليه

فهو يقبل الحبيب على علاته : استوى أم التوى ، ويقول
فى ديوان « أعاصير مغرب » الذى يدل اسمه على أنه نظم
شعره وقت الغروب أى فى سن متأخرة .

أعفيك من حلية الوفاء	إنك أحلى من الوفاء
خونى ! فما أسهل التقصى	عندى وما أسهل الجزاء
وليس بالسهل فى حسابى	فقدك يا زينة النساء

وهو يحسن الظن بفتاته فيقول :

عجباً والدهر لا يفنى أعاجيب الحياة
مفرق شاب يشب الحب في قلب فتاة
شرك صاد - ولم أنصبه - صياد البزاة

ويقول :

رأيت العجب العاجب في الدنيا وما فيها
شباباً هام بالهامة قد شابت نواصيها

ويقول :

طفلة تهفو إلى الشيب أجل ثم أجل

ولعله بذلك ينزع إلى إرضاء اعتداده بنفسه ، الذي هو
دأبه في جميع أطوار حياته .

وهو لفرط حبه لنفسه يكاد يتغزل في نفسه ، فإننا نراه
في الأبيات المتقدمة يقول إنه شب الحب في قلب الفتاة ،
وإنها هامت بهامته الشائبة ، وإنها تهفو إليه ، وذلك بدلا من
أن يقول إنها هي التي شبت الحب في قلبه . . . إلخ . وهذا
يشبه ما قاله عمر بن أبي ربيعة وما نقله به ابن أبي عتيق ،
وذلك أن عمر قال يحكى حديث الفتيات عنه :

قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟

قالت الوسطى : نعم هذا عمر !

قالت الصغرى : وقد تيمتها

قد عرفناه وهل يخفى القمر !

فقال له ابن أبي عتيق : أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك .

ومن غزله البديع في هذه الفترة قوله وقد أطلقت « صفارات

الإنذار » في خلال الحرب الأخيرة :

صوت النذير الذى أبقاك خائفة

على ذراعى قولى كيف أخشاه

أو البشير الذى يدعوك ثانية

إلى الطريق لعمرى كيف أرضاه

الحب والحرب واويلا ، قد اجتمعا

فى القلب فانقلبت أحوال دنياه

وقوله وقد أهدت إليه لفاعاً (كوفية) :

لفاعك فى عنقى كالوفاء يطوق جيد السميع المحيب

مكان ذراعىك أولى به نسيج يديك السخى القشيب

إذا فاتنى منك طيب العناق فسلواى منه بديل قريب

فلا أحرم الدفء عند اللقاء ولا أحرم الدفء عند المغيب

وأرى أن رقة غزله في هذه الفترة إنما هي من أثر النار
القديمة التي أنضجته . ومثل هذا الشعر ليس كثيراً في دواوين
العقاد . وأعتقد أن جيده يبلغ نحو العشر مما نظمه ، ولو أن
هذا العشر عرض وحده على الناس لاعترف له بالشاعرية من
ينكرها عليه . وإن نسبة كبيرة من جيده يستغرقها الحب والغزل .

محمود تيمور

« إن الحب ليس إلا وليمة فاخرة من ولائم الحياة ،
وما المرأة إلا اللون الشهى من ألوان الطعام فيها » .

هكذا يعرف لنا الحب ، الأستاذ محمود تيمور ، فهل
عمل هو بحكمته وانتفع بأيه فأقبل على وليمة الحب فتناول منها
ما لذ وطاب من النساء ؟ . . .

لقد حفلت أقاصيصه ، رواياته بالحب ولذائذه ولواعجه
وأشواقه ، فهل هي موائد قضم فيها وهضم ، أم هي ألوان
عزت عليه ، أو لم تتح له ، فأراد أن يحقق في الخيال ما حرمه
في الواقع . . . أم هو يمثل ويندمج فيما يمثل مستغلا في
هذا الاندماج مشاهداته ومسموعاته ؟

إننا نرى تيمور يجول في كثير من نواحي الحياة والمجتمع
البعيدة عن حياته الأصلية وبيئته التي نشأ فيها ، ويقدم لنا
فنونا من صورها ، معتمداً في تصويرها على مرثياته وتأملاته .
ومحمود تيمور هو ابن أحمد تيمور باشا ، ولكنه مع ذلك
« أرستقراطي فلاح » وهذا هو عنوان مقال كتبه عنه المستشرق

الروسي « كراتشكوفسكى » ، ساق فيه ما دار بينه وبين ماسح .
أحذية في محطة « عين شمس » ، إذ كان « كراتشكوفسكى »
يبغى زيارة تيمور باشا في منزله هناك . قال ماسح الأحذية
للمستشرق :

إننى أعرف الباشا ، وأعرف أولاده . . . إنهم فلاحون
بمعنى الكلمة ! إذا اجتمعت نساء القرية ، اللاتي يحملن
العجين لحبزه في الفرن أحاطوا بهن كالهالة ، لسماع أناشيدهن الريفية ،
إنها تروق في نظرهم ، وتجلب السرور إلى نفوسهم ، فيجلسون
هادئين كأن على رؤوسهم الطير ، وجميع الفلاحات يقدمن إليهم
فطيراً طرياً كما يفعلن عادة مع أولادهن . وإذا ما جاء وقت
الأصيل ، والتأم الأولاد في الجرن للعب الكرة ، أقبل أبناء
الباشا ، واشتركوا معهم ضاحكين صائحين مسرورين . . .
حقاً إنهم فلاحون !

فمحمود تيمور إذن أحد إخوة أرسقراطي المنبت ، ولكنهم
يميلون إلى حياة أخرى طريفة غير حياتهم المملولة ، ثم نرى
أحد هؤلاء الإخوة وهو محمد تيمور ، يعود من أوربا مشبعاً
بأفكار جديدة ترمى إلى إنشاء أدب مصرى مبتكر يستملى وحيه
من صميم البيئة ودخيلة النفوس ، ونرى أخاه محموداً يتأثر
بآرائه ، فيتحول عما هو غارق فيه من أدب رومانسى ، يقرأه

ويتأثر به ويكتب على غراره ، إلى أدب مادته الحياة المصرية
الجارية في محيط الشعب المصرى .

وعلى ذلك الأساس ، وطبقاً لذلك الميل وهذا الاتجاه ،
نرى محمود تيمور يأخذ في حياته دور « السندباد » وفي أدبه
دور « الممثل » فهو يجول ويطوف ويعاشر ، ويدرس ويقراً
ثم يخلط مشاهداته ومسموعاته ومقروءاته بمشاعره وأحداثه الخاصة
ويصعد إلى خشبة المسرح مندجماً فيما يؤدي من أدوار .

ولعل الحب ، أو هو على التحقيق غير مسبوق بلعل ،
أكثر أمور الحياة حاجة إلى معاناة الكاتب الذى يعرض له
ويتناوله بالوصف . ولا بأس بإيراد هذا البيت المشهور ،
على كرهى لهذه الطريقة التى كانت تعجب أساتذتنا فى الإنشاء
المدرسى ، وهو :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانها

ولا يخفى على سؤال يدور برأسك الآن ، وهو : هل
محمود تيمور ، فيما كتب عن أشخاص قصصه المحبين ، إنما
كان رحالة « سندباداً » يسمع ويرى ثم يصف ويصور . . .
أو ممثلاً يبحث عن أهل الهوى ليشاهدهم يتحابون كى يندمج
فى دور المغرم الوهان وهو يكتب عنه ؟ . . . إننى لأعتقد

ذلك ، وقد أرادنى هو على أن أعتقده . . . وما أراه فى محاولة
 حملى على هذا الاعتقاد إلا « ضنيناً بنفسه أن تلحقه من ذلك
 تبعه . . . » فقد صور ما صور من حبه متصلاً منه ، نائراً
 أشتاته على شخصيات قصصه ، محتماً وراءهم ملقياً عليهم
 تبعته . . .

وذلك لأن محمود تيمور يعيش مشدوداً بين مقتضيات
 بيئته الأرستقراطية التى ينحسر ظلها عن أدبه وتفرض عليه
 طقوساً من رسمياتها ، وبين ميوله الديمقراطية التى يتخذها مذهباً
 فى الأدب ، أضف إلى هذا أنه نشأ فى أسرة محافظة تضمن
 بأفرادها على التبذل أو ما تعتبره تبذلاً .

حدثته عما لاح لى فى قصته « شباب وغانيات » من ظلال
 شخصيته وقلت له : إن فيها حادث حب لك . . . فنفى ذلك
 وأمعن فى النفى ليبرئ ذمته مما وقع من بطلها الذى أعنيه . . .
 وأنا برغم هذا أتشبث بهذه القصة فى هذا الموضوع ، لا أريد
 أن أفلتها . . . فسامى ، أو جزء من سامى ، هو أدينا الكبير
 فى صغره ، وأنا أعلم أن الكاتب القصصى لا بد له أن يمزج
 تجاربه بخياله ، بل إن الخيال نفسه يتركب من تجارب
 مختلفة ، ومن أحداث خاصة ومسموعات ومشاهدات يصهرها
 كلها فى بوتقه لينتج منها مركباً حياً هو القصة ، ونحن الآن

بصدد تحليل هذا المركب فى قصة « شباب وغانيات » .
 الجزء الذى يخص صاحبنا من سامى هو حبه لفتحية . . .
 وهى فى القصة ابنة ضابط المدرسة التى كان سامى تلميذاً بها .
 دعاه الضابط إلى منزله ، فذهب معه إليه فى مركبته ، مركبة
 سامى . وجعل سامى يشارك فتحية فى قرص الجحش « سرحان »
 ثم يتبادلان ركوبه فى فناء الدار . وفى اليوم التالى وجد نفسه
 يقول لسائق المركبة :

مل بنا إلى بيت الضابط لأرى الجحش « سرحان » .
 وابتسم السائق « مدبولى » وفرقع بسوطه وقال : أمرك
 يا سامى بك ! .

وتكررت زيارته لبيت الضابط ، وتوثقت العلاقة بين
 الصغيرين . وفى القصة شخصية طيبة ذات ميول ديمقراطية
 هى « مودة هانم » زوجة الأخ الأكبر لسامى الذى يتخذها
 كأم له ، وتمتد الصلة بين فتحية وسامى إلى جدة فتحية ومودة
 هانم ، فتنشأ بين الأسرتين صداقة تقوم على تعاطف بين
 السيدتين ، وتعاطف من نوع آخر بين الفتى والفتاة اللذين
 كبرا على مر الزمن .

ثم نرى الفتى مشدوداً بين فتحية وفتاة أخرى أرسطة اطية
 فيها صلف وزهو من إسطنبول . . . وهنا تظهر بعض الملامح

المعنوية في شخصية تيمور . فتى فنان الطبع تدفعه إنسانية
طيبة إلى تجاوز مراسيم البيئة . يضيق سامى بالفتاة المزهوة
«تهانى» ويغضب من احتقارها وتعريضها بفتحية وجورها
الشعبي المقلوب . . . وهو يشعر بشيء من اللذة في صحبة
تهانى ، ولكن حبه لفتحية يدفعه إلى زجر تهانى ، وإن كان
زجراً عجيباً . . . فهو يراها تنصب على رأس فتحية
أرذل النعوت والأوصاف ، فيقول لها : كفى يا تهانى ! ثم يقف
ويحدق فيها ، وعاصفة الغضب تزلزل كيانه ، ويدور رأسه ،
ثم يهجم على تهانى . . . فيحتويها بين ذراعيه ويندفع في
تقبيل فمها كأنه يمزقه تمزيقاً ! وبعد هذا العقاب الصارم . . .
تولى عنها يبحث عن حبسته فتحية !
وعلى أى حال فقد أثر سامى فتحية بحبه الصادق ،
وانتصرت الإنسانية المتواضعة الطيبة على الصلف الشعباني المزهو . .
ثم هذا الحجل وقلة الحيلة اللذان يستفزان الخادمة
« أم خضير » في مخدموها الشاب اليافع ، إذ تراه يغامل فتحية
بمقتضيات الغرام والهيام التي تفهمها ، فلا تملك إلا أن تهوى
على أذنه بفمها تهمس له : إذا جاءتك فأغلق الباب عليكما
دون أن تشعرها بأنك تفعل . . . لا تضع الفرصة يا أبله !
وعند ما تغضب فتحية ، إذ ترى سامى مع تهانى ، وتختفى

فى القصر وىبىحث عنها سامى - تسرع أم خضىر بإحضار
فتحية إلى سامى وتقول : فتحية لها عندنا مقام كبرى . إنها
صاحبة البيت ، ورضاها أمر لا بد منه مالنا وللضىف الدخىل
الذى لىس منا ولىس له فى قلبنا مكان ! ثم تهىب المرأة بسامى
قائلة : تقدم لتصالحها .

هاتان الصفتان ، الخجل وقلة الخىلة ، سترى بعد قلىل
أثرهما العجىب فى مواقف الحب بقصص تىمور .

وذلك القصر الذى كان فى القصة مسرحاً للمعابثات
والمواثبات والمغامرات بىن سامى وفتحية ، وبنىه وبنى تهانى . . .
أى قصر هو ؟ يقول لنا المؤلف : إنه منزل الأسرة - أسرة
سامى - الكبرى بالحمزاوى ، وىصفه بأنه كان أشبه بالقلعة
العتيقة ، له سور شاهق ومخابئ مرهوبة وىذخر بأثاث فخم
تحتوىه حجرات رحيبة ذات سقوف عالية تملأ النفس من
روعة وجلال . . . إلخ .

وكان المنزل الكبرى لأسرة قصاصنا الكبرى فى درب سعادة
بالقاهرة ، وهناك أمر دقىق يعرفه كل قصاص لأنه ىزاوله ، ذلك
أنه عند ما ىزىد أن ىغىر الأسماء أو المعالم ىختار لها - بدافع
الرغبة فى الدنو من الواقع - أقرب الأشياء إليها وأشبهها بها ،
ودرب سعادة والحمزاوى من الأحياء المتشابهة فى القاهرة العرىقة .

وقد رأيت له قطعة من الشعر المنشور عنوانها « القصر الصامت » نشرت بجريدة « السفور » يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٦ بتوقيع « محمود تيمور بالزراعة العليا » يناجى فيها ذلك القصر مناجاة تدل على ما كان له فيه من ذكريات غرامية . وقد بدأ محمود تيمور كتابته الأدبية بالشعر المنشور ، وعند ما تحول إلى القصة عاجلها على طريقة شعرية خيالية . . . ولعل أول قصة كتبها هي قصة عنوانها « الحب بين دمة اليأس وقبلة الأمل » نشرت بالسفور يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١٦ ، وهو يسوق فيها — على لسان الكاتب — حادث حب لا يمكن أن يقع على ظهر الأرض . . . فقد شاهد الحبيبة في حديقة ، ثم نظرت إليه وسارت في طريقها ، فنزلت من عينه « دمة الحب الأولى » ثم رآها ثانية وكانت تقرأ في كتاب فلما علمت أنه لاحظ أنها لا تقلب الصفحة لشرودها أطرقت تمسح دمة حبها الأولى . . . وجمع بينهما الألم والحزن . . . فتحابا ، وأراد أن يقبل جبينها فأخطأ في الظلام ووقع فمه على فمها بقبلة الأمل . . . وبكى ، وبكت ، وحزن ، وحزنت ، لا لسبب إلا لأن النزعة الغالبة على الأدب وقتذاك كانت نزعة خيالية رومانسية حزينة تهم صروف الزمن وغير الدهر ظلماً بالعدوان على الأديب وصبغ حياته بألوان من الأسى واليأس والألم .

ولا شك أن المدى البعيد بين القصة الأولى لتيমور وبين ما أنتجه بعدها من روائع القصص ، يشجع أى ناشئ موهوب فى القصة ويبشره بمستقبل باسم . . .

وقد قلت إن محمود تيمور فى حبه الأول هو جزء من سامى بطل « شباب وغانيات » ومعنى هذا أن عملية الخيال وتركيب الوقائع فى القصة مزجت هذا الجزء بالأجزاء الأخرى التى لا تلائم شخصية كاتبنا ذى النزعة الإنسانية الطيبة ، الخجول قليل الحيلة ، فأنا أفرض أنه أحب فتاة فى مثل ظروف فتحة ، وأنه استخدم هذا الحب فى تكوين جو يغلب فيه الفتى على أمره ، ويحال بين حبه وبين مجراه الطبيعى ، فيندفع فى الغبث إلى أقصى حد ، ثم ينتهى إلى الاشمتزاز من العبث والرجوع إلى طبيعته الطيبة فى آخر الأمر .

لم يكن كما فى الأجزاء الأخرى من سامى عابثاً ماجناً فاجراً . وهنا أصل إلى نقطة مهمة ألحظها فى فن تيمور . . . إنه يصور المواقف العارمة فى الحب أقوى تصوير ، ويميط اللثام فيها عن الدوافع الغريزية ، ويرسم الطريق رسماً مؤدياً إلى الغاية . وليست شخصية الكاتب فى واقعها على شىء من ذلك ، فهو فى هذه التصورات والتصويرات التفصيلية لا يصدر عن تجربة ولا يعبر عن واقع .

إن تيمور في هذا المجال يزاوُل تعويضاً نفسياً ، فهو
 خجول يضيق بنحجله ويثور به في فنه فيناقضه بالوصف المتخيل ،
 وهو لنحجله قليل الحيلة ، يفوته في واقع الحياة أن يفعل كذا
 وكذا ، فعندما يتناول القلم يسطر به ما فاته وما استعصى
 عليه من ضروب الحيل . ونرى له شغفاً في بناء القصة القصيرة
 بتتبع الأسباب وتهيئة المقدمات التي تفضي إلى الحب والمواقف
 المشبوبة بين المحبين . وهو يجيد في ذلك كل الإجابة ،
 وأحسب أن محاولة « التعويض » هنا أقوى من وصف الواقع ،
 لأنها تصدر عن قوة نفسية واقعة ، ولعله أيضاً شعر بالإخفاق
 في القصة الأولى ، التي أهملها وظن أنه تركها في زاوية النسيان
 بجريدة السفور ، من حيث لم يستطع أن يجعل الحبيين
 يتلاقيان إلا عن طريق دمة منه ودمة منها لا داعي لهما . . .
 فعمل على أن يجيد تقويم مثل هذه المواقف في قصصه ،
 وقد فعل .

ومحمود تيمور رجل وديع هادئ لطيف في واقع حياته ،
 ولكنه يرى أن العنف بالمرأة بل ضربها ، يستدعي محبتها ،
 كما نرى ذلك في قصة « ضرب الحبيب » التي جعل فيها
 الشاب يضرب الفتاة ضرباً ينتهي بها إلى الفناء في أحضانها .
 ويقول لنا في كتاب « عطر ودخان » على لسان « عم حسنين »

بائع العصي : « إن الناس إذا ضربوا ونالوا من الضرب قسطهم فقد أخلوا صدورهم من الأحقاد والعداوات ، فتصفوا النفوس وتتهيا للمحبة والسلام . ألم تسمع المثل القائل : لا محبة إلا بعد عداوة ؟ أو على الأصح لا مودة إلا بعد علفة » سخنة » ويوى على لسان عم حسنين أيضاً أن الخيزران الرقيق اللين لا يصلح للجنس اللطيف لأن من هذا الجنس من هى أحق بالتأديب بأغلظ العصي وأشدّها إيقاعاً إن من بينهم من يخفين خلف بشرتهن الناعمة ومظهرهن الأنيق قلوب الشياطين . إلى أن يقول عم حسنين :

« فى نظرى أن المرأة فى دخيلة نفسها تستعذب الضرب وبخاصة من يد رجلها الذى تحب . نصيحى إليك أن تكون العصا لغة التفاهم بينك وبين صاحبتك إذا ما نشب بينكما نزاع . . . وثق أنك لن تسمعها إلا مترنمة بالمثل القائل : ضرب الحبيب كأكل الزبيب . »

و « عم حسنين » نفسه لا يحمل العصا ، كما يحدثنا عنه تيمور ، وهو يرى أنه لو كان يتخذها لما صار إلى ما هو فيه من رقة حال ، فالرجل ينصح بشيء مفقود فى حياته ويدافع عنه بتلك الحرارة ، وهو فى هذا مثل كاتبنا الكبير أو قل هو كاتبنا الكبير يتقمص شخصية عم حسنين

فإن محمود تيمور يميل في كتابته إلى أن ينفض عن نفسه تبعة بعض الأفكار التي تجول بخاطره ، فينسبها إلى شخصية في قصة أو في مقال ، ومن شخصياته في المقالات « عزوز » الذي يزعمه صديقاً يكاثره ويجادله ، وذلك لأنه يشعر بوضعه الاجتماعي كأنه رقيب عليه ، وهو يخضع لهذا الرقيب ، ولكنه يتحایل في الخروج على طاعته باسم الفن بحيث يبدو في زى غيره .

كان محمود تيمور وشقيقه محمد تيمور يكتبان في جريدة السفور ، ثم توليا أمر الجريدة ، وخاضا غمار الصحافة ، وهنا تدخل الوضع الاجتماعي ، وكانت الصحافة في ذلك الوقت كالتمثيل يعد الاشتغال بها غير لائق بأبناء البيوتات ، ومن هذا القبيل ما حدث قبل ذلك للشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد عند ما تزوج ابنة السادات فرفع أهلها قضية يطلبون التفريق بينهما لأن الزوج صحفي وهو غير كفء لذات النسب والحسب

ولم يرض أحمد تيمور باشا عن اشتغال ولديه بالصحافة ، وخطب محمود ابنة سعيد ذو الفقار باشا ، فعزز والده رأيه وعزمه على منع ولديه عن الصحافة بالصهر بالحديد فاجتمع رأى الرجلين الكبيرين على التأثير في محمود ، ومن وراء الرجلين

الخطيبة المحبوبة ولم يكن محمود رأى غير صورتها التي بعثت إلى خياله حباً شعرياً على الطريقة الرومانسية ، وإزاء هذا كله ترك الشابان الحريضة لمديرها عبد الحميد حمدى .

ومن خلال ذلك يطل علينا حب جديد فى حياة محمود تيمور ، يبدأ بالصورة والخيال ثم يتوطد بعد عقد الزواج فى فترة ما قبل الزفاف ، وتستمر هذه الفترة نحو ثلاث سنوات يلتقى فيها العروسان ويتترهان ، ثم يعود كل منهما إلى داره يحلم بالسعادة فى العش المأمول ، ثم يتزوج محمود فى سن مبكرة : بعد العشرين ، ويستقر حب الزوجين فى هدوء يصطبغ به كل زواج كريم تسوده المودة والتقدير .

فمحمود تيمور إذن قد أحب وعرف الشوق وعانى الصباغة ما فى ذلك شك ، وكان هذا هو الجذوة التى قبس منها والمحور الذى دارت عليه كتابته فى الحب ، وقد أضاف إلى تجربته ما وقع تحت حسه مما شاهد أو سمع أو تخيل ، فقد استعان فيما تخيله بنقيض ما فقدته فى حياته على نحو ما بينت فيما سبق .

ولعل زواجه المبكر وضع حداً للمغامرات فى الحب ، ولكننا نراه مرة أخرى يترع إلى تجديد حركة الحب فى الفن ليعوض به السكون فى وقع الحياة ، ها هو ذا فى قصة

« ملاريا الحب » يتقمص شخصية طبيب ينصرف من عيادته في سيارته وإذا هو بعد قليل يحس حركة في السيارة فيلتفت ويضيء المصباح ، فيرى يدين تظهران من تحت معطفه الذى كان فى السيارة ، ثم ساعدين بيضاوين ، ثم يطالعه وجه حسناء . . . وإذا هو يسمعها تقول فى نغمة راعشة : إلى أين تريد أن تذهب بى يا سيدى ؟

وتحكى له الحسناء قصتها التى تلخص فى أنها أحبت رجلا وأحبها ، ثم تزوجا ، ثم دب الشقاق بينهما ، وتبينت حقيقته السيئة التى كان يخفيها بالخداع ، ثم افترقا بالطلاق . وفى هذا اليوم تلقت منه بطاقة كتب إليها فيها أنه مريض مشرف على الموت ويطمع أن يزود عينيه بنظرة وداع . . . فعاودها الشوق القديم وأسرعت إليه فى أول سيارة لقيتها دون أن تغير ثيابها المنزلية . . . وإذا هى تراه يتوسط حجرفته مكتمل الصحة يتوقد مرحاً ، وإلى جانبه مائدة تتزاحم عليها أكواب الشراب وصحاف الطعام ، فاستقبلها ثملاً يتمايل والكأس فى يمينه ، فأطارت الكأس من يده بصفعة اختلج لها وترنح ، وخرجت من مسكنه تعدو لا تكاد تتبين طريقها وما رأت سيارة الطبيب حتى دخلت فيها .

وتقول الحسناء للطبيب وهما فى الطريق إلى مصر الجديدة

حيث يقع منزلها ، وقد أراد أن يوصلها إليه ، إنها تريد أن
تشتغل وقتها بأى عمل فيقول لها :
— المرأة لم تخلق إلا لأمر واحد .
— وما هو ؟

— إنها خلقت للحب !
— الحب ؟ !

— الحب وظيفة المرأة ، وظيفتها الأولى فى المجتمع .
— وإذا كان هذا الحب أصل بلأها وجحيم حياتها ،
لم تنل منه غير الخيبة والإذلال فماذا تصنع ؟
— تبحث عن حب آخر . . . حب جديد يحل محل الحب
القديم ويطارده . . . لا يفل الحب غير الحب ! ألم تسمعى
قول الشاعر : وداونى بالتى كانت هى الداء .
— وإذا أصابها الإخفاق فى الحب الجديد ؟
— تبحث عن سواه .
— وهكذا . . .

— نعم ، الحب ، الحب دائماً . الحب فى حياة المرأة
عنصر لا يقل خطراً عن الماء والهواء بل إنه ليفوقهما . . .
إنه عنصر الحياة الأولى .

ثم نرى الطبيب الذى تقمص صاحبنا شخصيته يوصل

تلك الحسنة ، لا إلى منزلها بسيارته ، بل إلى قلبه . . . بهذا الحوار الذى امتد إلى الغزل وبما تدسس إلى مشاعره منها ومن كلامها المنغم الراعى . . . كما أوصل نفسه إلى قلبها . . . وفى هذه القصة نلمح رأى الكاتب فى الحب ، ودلالة هذا الرأى على القلب المتجدد الشوق ، والطبيعة الإنسانية لا تختلف بين الرجل والمرأة ونحن — كقراء — لا نستطيع أن نجزم بأن حادثة القصة وقعت للكاتب أو تخيلها ، أو سمعها ، أو رآها ، ولكننا ، كمنقاد إن لم نجد ما يدل على شيء من ذلك فإننا على الأقل نستطيع أن نستخلص منها دلالات تتعلق بنفس الكاتب وفكره ومشاعره .

فى القصة أن الفتاة الحسنة تعرف من حديثها مع الطبيب أنه الدكتور شهدى الذى تقرأ له فى الصحف والمجلات أبحاثاً طبية وأنها معجبة بما يكتبه وخاصة بحثه فى « الملاريا » وذلك فى حوار بينهما طويل يتضمن شعور القارئ نحو الكاتب ، وأن الثانى يظل مجهولاً عند الأول مهما يقرأ له ، حتى يتعرف به ، فإما أن ينهار الصرح الشامخ الذى كونه له فى نفسه ، وإما أن يزداد تمكناً وشموخاً . . . إلخ

وذلك أحرى بأن يكون بين القارئ وبين الكاتب الأديب ، أما الطبيب الذى يكتب بعض الفصول فى الطب فلا يبلغ أمره

ذلك الجو الموصوف في القصة . وعلى هذا أقول بأن في القصة
هذا الظل من الكاتب نفسه قد يكون ركبه مع الخيال ، وربما
لا يكون . . . ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن جرثومة « ملاريا
الحب » - على ما يرى تيمور إذا أصابت أحداً مرة أو عدة
مرات فإنها لا تعتبر مصلاً واقعياً منها بعد ذلك .

أحمد حسن الزيات

كان أحمد حسن الزيات ، عند ما غزا قلبه الحب الأول ،
 فتى فى السابعة عشرة من عمره قد عاد من الأزهر ، إلى قريته
 « كفر دميرة القديم » حيث يقضى العطلة الصيفية .
 وكفر دميرة القديم ، قرية من ضواحي المنصورة حيث
 يعيش الجمال فى الإنسان والطبيعة ، وما يبعثه الجمال فى
 النفوس من شاعرية ، وما تلابسه الشاعرية من رقة وظرف
 وعذوبة . وكان فتاناً على شىء من الوسامة والجمال ، وقد
 وصف نفسه متقمصاً شخصية روائية فى قصته « رجالان وامرأة »
 التى نشرت بمجلة « الرواية » فى عهدها الأخير ، قال : « ولعل
 أظهر ما يميزه حياؤه المفرط وصمته الطويل ، فأكثر ما يجيب
 عن أكثر ما يسمع ابتسامة حيه ، فإذا نطق رمى بالكلمة أو
 الكلمتين فى خفوت وحذر ، فتذهبان فى ضجة الحديث كما
 تذهب النسمة اللينة فى الدغل الشاجن ، أو القطرة العذبة فى
 الموج الصاخب ، فيزداد امتعاضاً وانقباضاً ووحشة ، ومن العجيب
 أن حياءه كان يغرى به النساء ، لأنه كان حياء من نوع

غريب ، لا ينم عن ذلة أو ضعفة أوجبن ، وإنما ينم عن حشمة فيها عزة ، وعن رقة فيها ترفع ، وعن طيبة فيها شجاعة ، فكان النساء يفهمن هذا الحياء على غير معناه : يحسبونه استخفافاً وراءه كبر ، أو انصرافاً تحته سر ، والمرأة يهين دلالها الكبر فتريد قهره ، ويثير فضولها السر فتحاول كشفه . لذلك كانت يفاعته وشبيبته موجات من حبهن الجريء ، تتعاقب عاتية على قلبه البريء .

ونعود بعد ذلك إلى صاحبنا في مرحلة اليفاعه ، حين هبت أول موجة عاتية على قلبه الذى كان هو أيضاً فى ذلك الوقت عاتياً ، إنه فى مستقبل شبابه ، ليس من شأنه أن ينتظر فضول النساء وما يثيره فيهن حياؤه من أى نوع كان . وفتاته . . . لم يكن يعنيها كبر فتقهره ، ولم يكن يثير فضولها سر فتحاول أن تكشفه . إنما هى بنت ساذجة فى عمر البدر . . . فى الرابعة عشرة . . . إحدى جانبات القطن فى حقلهم يصفها فى قصة « الغرام الأول » فيقول :

« تمتاز بحلاوة الصوت ولطافة الروح وقوة الجاذبية ، وكان منبع الجاذبية فيها عينين حوراوين تشعان الفتنة من خلال أهدابهما الوطف ، وفماً رقيق الشفتين نضيد الثنايا جميل الاقترار ، وصوتاً لطيف الغنة حلو النبرات فضى الرنين ونفساً رزينة الطبع

رقية الشعور هادئة الشعاع .

أحس إزاءها بحب عارم عبر عنه بأنه شيء خفى قوى لا
يجهله لأنه ملء الشعور ، ولا يعلمه لأنه فوق المعرفة .
هذا هو الفتى الأزهرى الأنيق الوسيم ، الذى عاد إلى
أجضان الطبيعة البرعوم ، يحوم بطبيعته الشعرية بين الحقول
كالفراش ، هذا هو يشارك فى عمل هين بالحقول ، يرقب عمل
البنات فى جمع القطن ويسجل أسماءهن ، وفى الوقت نفسه يروى
مشاعره الظامئة من الجمال ، ويسمع غناء الفتيات عند ما
يقبل عليهن :

يابدر لما جيت . . . كانت ضلام نورت

هذا هو جالساً تحت الظلة عند مفارش القطن المجموع ،
والبنات يأتين ويضعن ما يثقل حجورهن من القطن ، وهذه
« نور » التى ملأت شعوره بالشيء الخفى القوى ، تأتى وحدها
وتحل نطاقها على المفرش ، ثم تفرط حجرها وهى خاشعة
الطرف باسمه ، فيستدعى حديثها ، فلا تنبس ، فيطلب منها
جرة الماء ، فتجىء بها على استحياء . لم يكن به عطش وإنما
تعلل بطلب الماء ، عساه أن يبلل حرقة فى قلبه .

وانقضى موسم الجنى ، وكادت الأسباب أن تنقطع بين
الحبيبين ، إذ غلب على الفتى حياؤه الذى جبل عليه ، فلم

يكن له من حيلة في أن يراها إلا أن يمر ببابها ، أو يسير في طريقها ليلمحها راكبة فوق حمل البرسيم على حمار ، فيخالسها النظر ويسرق منها ابتسامة ويمضي في طريقه .

واهتدت الفتاة إلى حيلة . . . عصبّت عينيها بمنديل أسود ، وقصدت إلى بيت الفتى وكانت فيه صيدلية صغيرة تحتوى على « قطرة الزنك » جعلت لمن يشاء من أهل القرية ، وكان يتولى هذا العمل الخيري الفتى أو أحد إخوته .

— أهلا وسهلا . . . سلامة عينك يا نور !

— الله يسلمك ! عاوزه أخط « أطره » .

دخل بها المنظرة وأجلسها بجانبه على الكنبه ونظر في عينيها ، فرآها محتقنة ، فسألها عن السبب ، فقالت إنها حكته عامدة بالتوتيا الخضراء .

— ولماذا ؟

— كده !

— كده ليه ؟

— أهو كده !

وندعه يقول لنا هو :

« فضحكتُ وضحكتُ . ثم أملتُ رأسها الصغير على

ركبتي ، ووضعت كفي على وجنتيها وأنامل على خديها ،

وظفقت أنظر من هذا القرب إلى هذا الجمال الذى شغفنى
 وشغفنى ، وهذه هى العين التى ترسل السحر حيث ترسل
 النظر ، وهذا هو الثغر الذى يفتر عن المفاتن كما يفتر عن
 الدرر ، وهذا كله هو المحيا الذى يشرق فى قلبى الناشئ
 إشراق الأمل ويتحدث فى نفسى الغضة حديث الصبابة .
 وأردت أن أحجز تيار الهوى عن الوضع الذى نحن فيه ،
 فمألت القطارة وهممت أن أفتح عينيها ، ولكنها نهضت مذعورة وهى
 تضحك وتقول : "لا . . . لا ، عيني سليمة ، مفيش لزوم ."
 وظل الحبيبان يمثلان دورى طبيب العيون ومريضته . . .
 أسبوعاً ، يلتقيان فلا يكون بينهما إلا حديث عام يرضيان به
 حياءهما ويزوران على فؤادهما ، ثم يفترقان وفى صدر كل
 منهما سكير من الوجد يذيب الحشا ويرمض الجوانح !! ثم
 خشيت نور فضول العذال من طول التردد على حبيبها
 الدكتور . . . فأمرت عينيها أن تبرأ ! فبرئت العين ، وأصيب
 القلبان بنار البعاد .

وجاء الدور على الفتى كى يحتال . . . تذرع بصداقة
 أخيها ، وأنتجت الصداقة نتيجتها المقصودة فصار يذهب إلى
 صديقه ويقضى الأماسى بين أمه وزوجته وأخته . . . على
 فرن القاعة الدافئ . . .

ولما حان موعد الرحيل إلى القاهرة أفضى إلى أمها بذات نفسه ، ورجاها أن تزود الخطاب عن نور ريثما يعود . .
ولكن القاهرة أفسحت له منافذ أخرى غير الحب ، منافذ في دروس الأدب بالأزهر يتلقاها مع صديقيه طه حسين ومحمود الزناتي ، وفي دار الكتب المصرية ، وفي الجامعة القديمة ، وفي الصحف ، وفي الحدائق ، ومعالم المدينة التي يرتادها أعضاء المثلث « طه حسين والزيات والزناتي » ثم يعودون إلى البيئة الأزهرية ويقارنون بين ما يرون هنا وهناك ، ويستطرفون بالفوارق بين الحياة المدنية والحياة الأزهرية في ذلك الحين . كل تلك الشواغل قطعت عن القرية ، فصار لا يزورها إلا لماما ، ووسعت مسافة الخلف بين طريقه وطريق نور ، فسار في طريقه ذاك ، ولم يكن لنور إلا طريق الزواج من أحد القرويين .

وقد كتب الزيات قصصاً عن حياة الريف ، في بعضها حب ، ويخيل إلى أن في قصة « جلاد الشيطان » صوراً من حبه سبق بها هنا قبل أن يكتب « الغرام الأول » فهو يقص على لسان البطل ما أحسبه أحسن هو به في خلال شوقه إلى نور . . . يحدثنا أنه — أو البطل — عند ما لا يستطيع أن يرى حبيبته يحاول أن يخفف برحاء الشوق عن قلبه العميد بالنظر

إلى حمارها وهو يتمرغ في الحارة ، أو إلى كلبها وهو رابض على عتبة الباب ، أو إلى عيجلتها وهي تمشي متتدة أمام أمها إلى التربة . . . وذلك لأن الحب يصور له الأشخاص والأشياء على غير صورتها ، فهو حقيقة يرى حمارها أجمل الحمير ، وكلبها أظرف الكلاب وجاموستها ألطف الجاموس ! لأن في كل حيوان من هؤلاء شيئاً منها جميلاً محبوباً . . . وقد يزدري هذه الجواطر والمشاعر خلى لم يذق فؤاده طعم الهوى ، أما المحب فإنه يقدر الإحساس بها حق قدره .

ولعبت الأحداث بالطالب أحمد حسن الزيات ، فقطعته عن الأزهر . ولما استيقن أن طريق « امتحان العالمية » أصبح ملغماً ضد أضلاع المثلث الثلاثة ، لما أبدوه من آراء لم يرتح لها الأزهريون ، لم يجازف بسلوكه ، كما جازف طه حسين ، وإنما أعرض عنه ، وسنحت له فرصة اللحاق بمدرسة الفرير مدرساً للغة العربية ، وساعده على النجاح في هذا العمل ما كان قد أخذ به من الدراسات الأدبية ، والاتصال بالحياة العامة خارج الأزهر .

وبثت فيه هذه البيئة الفرنسية الجديدة ، روحاً جديداً ، وتعلم اللغة الفرنسية على يد أستاذ فرنسي بادلها لغة عربية . ويحدثنا في مقدمة « آلام فرتر » أنه قد هب عليه في

تلك الفترة ، سنة ١٩١٩ ، « هوى دخيل وهادئ لكنه ملح »
 وكان عندئذ ، كما يقول : « شاباً طريراً حصره الحياء والانقباض
 والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع ، في حس مشبوب يتوقد
 شعوراً بالجمال ، وقلب رغب يحترق ظمأً إلى الحب » . والواقع
 أن الزيات في كل أطوار حياته يكاد يحصره الحياء والانقباض ..
 الخ . ولكن هذه الأشياء كانت تحصره شاباً في الحس المشبوب
 والقلب المتحرق الظامئ إلى الحب . ولا شك أن وجدانه
 الحديد الذي مازجته ولونته الثقافة والتجارب الجديدة — هذا
 الوجدان قد أصبح في حاجة إلى غذاء جديد غير نور التي
 لم تذهب تماماً ، وإنما دفنت في ضمير الشعور .

وكان الأديب — أى أديب — في ذلك الوقت يشعر شعوراً
 خيالياً « رومانسياً » يمليه عليه ما يقرأ من ألوان الأدب الرومانسي
 المسيطر ، ولا بد أن يكون له حبيب ولو في الخيال ، يستمتع
 بتمثله ، ويتعذب بهجره الدائم ، ويلعن الدهر لأنه لم يأت
 إليه بالحبيب الذي لا وجود له . . . وقد تحرر الدهر ،
 وأنصف ، ورد إليه اعتباره ، منذ تحرر الأدباء من سلطان
 تلك الرومانسيات .

على أن الزيات كان له حبيب خطفه منه خاطب ، إذ
 تغلبت المادة والمنفعة على العاطفة والخيال .

في هذا الظرف الذي أحس فيه بلاوعة الحب المغلوب على أمره قرأ رواية «آلام فرتر» لجوته الذي قال : « كل امرئ يأتي عليه حين من دهره يظن فيه أن "فرتر" إنما كتبت له خاصة. » رأى في القصة رجلاً شديد الحس قوى العاطفة ، ورجلاً آخر بارد الطبع عملي الفكر ، وامرأة بينهما يجذبها إلى الأول طبعها الغزلي وقلبها الشاعري ويربطها بالثاني عقلها المادي ، هو نفس موضوعه . فترجم القصة مندمجاً في جوها ، شاعراً بمواقفها ، وليس كل من يترجم يفعل ذلك . وهنا الفرق بين الترجمة الآلية والترجمة التي تعتبر عملاً فنياً ، إذ يشترك المترجم مع المؤلف في عواطفه وانفعالاته ، ويعبر باللغة التي يترجم إليها ، كما عبر المؤلف باللغة التي كتب بها .

وكان الزيات قبل ذلك يلتقى بصديق له أديب معروف يحب مغنية كبيرة ، وكان كل منهما يحدث الآخر عن آلامه ونشواته في حبه . ثم خطر لهما أن يترجما رواية « غادة الكاميليا » وبدأ معاً . ولكن نظرية « توزيع الاختصاص » تدخلت في الموضوع ، ولما كان حب الصديق الأديب يشبه حب غادة الكاميليا فقد تركه الزيات يغنى على ليلاه ، وعكف هو على « فرتر » ينشد هواه ، ويندب بلواه .

وقد ترجم الزيات بعد ذلك رواية « روفائيل » للامرتين ،

وهنا أيضاً نرى شبيهاً بين حادثة هذه الرواية وحادثة حب
آخ للزيات ، ولعل هذا الاتفاق بين الحادثتين هو الذى
حملة هذه المرة أيضاً على الترجمة .

تقص علينا قصة « رجلان وامرأة » أن حافظ « الذى هو
فى الحقيقة الزيات » الأديب المدرس الذى يناهز الثلاثين
من عمره - وقد سبق وصفه - له صديق طبيب شاب « أمين »
يحدث مخطوبته « عقيلة » عن صديقه ، وقد قرأت هى له
وأعجبت به . ثم يزور حافظ عقيلة مع خاطبها أمين تلبية
لرغبتها . ويسافر حافظ إلى باريس فى رحلة تستغرق عاماً ،
هو العام الذى سافر فيه الأستاذ الزيات إلى باريس ليوذى
امتحان شهادة الحقوق الفرنسية بعد إتمام دراستها فى القاهرة .
وتبادل الصديقان الرسائل ، وذات يوم فض حافظ غلاف
رسالة أمين فوجد إلى جانبها رسالة وردية أنيقة من عقيلة . . .
وجرى التراسل بعد ذلك بينهم هكذا . . . رسالتان من حافظ
ورسالتان إليه . . . ثم عاد حافظ ، واستأنف اللقاء مع
الصديقين . وندع الزيات يقول لنا :

« وكانت الرسائل التى تبادلها الأصدقاء الثلاثة فى ثمانية
وأربعين أسبوعاً قد أزيلت من بينهم الكلفة ، وأطلعت كل
واحد منهم على دخيلة الآخر ، فكانت عقيلة تطمئن إلى

البصديق كما تطمئن إلى الخاطب ، فتتبسط في الكلام وتتساهل في الدعابة ، وتحول التيار الكهربى حيث تشاء برفع الكبس من هنا ووضعها هناك ، فترى أن أثره في الخشب غير أثره في المعدن ، وأن فعله في نفس أمين غير فعله في نفس حافظ ، فتقبل بنفسها وحسها على الأديب أكثر مما تقبل بوجهها وقولها على الطبيب .

وكان ذلك وما إلى ذلك في الصيف بالإسكندرية ، فلما عادوا إلى القاهرة فكرت عقيلة حتى وجدت الوسيلة إلى أن تلقى حافظ كل يوم . طلبت من أبيها أن تتعلم اللغة الفرنسية وقالت له : إن لأمين صديقاً توفر بحظه من هذه اللغة ، وقد قال أمين حين حدثته في هذا الأمر إنه يضمن أن يعطينى صديقه كل يوم درساً من غير تحديد وقت ولا تقدير أجر .

قالت ذلك وهى لم تتحدث به إلى أمين ، لأنها تعلم أن « اللوح » لن يعارض فيما تريد .

وبدأت الدروس طبيعية في أول الأمر ، ولكن عقيلة أخذت تتحدث بدلا من الفرنسية لغة الدرس ، بالعربية التى تواتيها في الحديث عن أخبار الأسر ومغامرات الفتيات ، وكانت تدس في ثنايا الحديث بعض المعانى الخاصة ، فيتجاهلها

المعلم ويصرفها بلباقته إلى المعاني العامة ، فتعود ، ويصرفها . . .
 واستقبلته يوماً وهي تقول له : « اسمع يا أستاذى ! إن درس
 اليوم سأخذه فى الطريق ، فإن لى عند الخياطة فستاناً أريد
 أن أجربه ، وعند المصور صورة أحب أن أراها ، ولا تريد
 أمى أن أخرج وحدى ، فما رأيك ؟ ثم خرجا . . . وجلسا فى
 ركن منعزل من محل حلوى . . . وفتحت حقيبتها ، ومسحت
 شفيتها الرقيقتين بالمنديل ، ومزت عليهما بالأصبع الأحمر ،
 ثم أثبتت عينيها فى عيني معلمها ، واستأنفت حديثها إليه
 قائلة :

. . . إنك أذكى من أن أموه الحق عليك وأكتم ذات
 نفسى عنك . أنا منذ رأيته استلطفته ، فلما قرأتك أحبتك ،
 ولما خالطتك عشقتك ، ذوقك وذوقى متحداً ، وشعورى
 وشعورك متجاوبان ، وحظك وحظى متشابهان ، فلك زوجة
 لا تفهمك ، ولى خاطب لا يفهمنى ، ولا أدرى وقد فتحت
 لك قايى ، وصارحتك بحبى ، أتستجيب لى أم تنبو على ؟
 ولكنه لم يستجب لها ، بل ذكرها بأنها مخطوبة وأنه متزوج
 وصديق أمين . وكان مما قاله لها :

« سمعتك تذكرين الحب وتفسرين به تلك العاطفة التى
 تجدونها فى قلبك لى ، وأنا أيضاً لا أكذبك قد شعرت بأن

نبته من هذه الفصيلة الحمقاء قد نبتت في قايى لك ، ولكننى أحاول جاهداً أن أمنع عنها الغذاء والرى حتى تموت . لا أقبل أن أكون قطيعة قلبين أرجو أن أؤكد بينهما الصلة ولا أكون شقاء صديق أريد أن أوفر له السعادة » .

والحقيقة أن النبتة التى نبتت فى قلبه كانت غارقة . . .

ولم تكن حمقاء . . . والدليل على عقلها الوافر ما يأتى :
 ذهب إليها فى اليوم التالى ، إذ لم يشأ أن يغير عادته ،
 ليعالج الأمر بالحكمة واللين ، ولكنها لم تكد تخلو إليه فى
 المكتب حتى أمسكت كتفيه بيديها وهزتهما هزاً رقيقاً ثم أدنت
 صدرها من صدره تريد أن تعانقه ، فردها بيديه رداً ليناً . . .
 وحاول أن يعالج الأمر بالحكمة واللين . . . ولكنها ضغطت
 بساعديها على ركبتيه وانحنت على يده وذراعه بالتقيل واللم
 وهى تقول فى نحيب وضراعة :

لا تفارقنى يا حافظ ! قل لى إنك تحببى ! أنت أول
 من أحببت فلا تفجعنى فى حى الأول !

ودخلت الخادمة بالقهوة فتظاهرت عقيمة بالإغماء ، وأخذ
 المعلم الحكيم يربت خدها ويدلك يدها . ثم جاءت أمها تحمل
 المنبهات وأخذت ابنتها على صدرها الرعوم . . . وتظاهرت عقيمة
 بأنها أفاقت ، فنقلتها أمها إلى الفراش ، وانتهى الدرس وانصرف المعلم .

ونحن في هذه المرة نرى صاحبنا محبوباً ، تموت المحبة في هواه ، ولا عجب في هذا ، فهو شاب ناضج وسيم أنيق المظهر مستنير الفكر لبق الحديث في حياء ، يجذب النساء المحربات ويشير فضولهن ، وقد كانت عفيفة فتاة مجربة . . . كانت آنسة مخطوبة ، ولكن كان لها جولات ومغامرات مع شبان أقنعها التجربة معهم أنهم طلاب صيد يلهون به كما يلهو الطفل بالعصفور وقتاً ثم يدق عنقه . ثم قنعت بخطيبها الطيب الجامد البارد الذي يملأ العين بمنظره ولكنه لا يبعث في القلب حرارة . فلما لاح لها صاحبنا وجدت فيه الحلقة المنشودة ، وجدت فيه الجولة الصادقة المترنة والفؤاد الشاعر ، والمعدن الذي يفضل الخشب عند وضع الكبس . . . ولا نرى صاحبنا نفسه محبباً لها بالمعنى الفنى للكلمة ، ولا نجد في القصة شيئاً يؤيد ما قاله من أن نبتة حمقاء نبتت في قلبه ، فقد كان صديقاً وفياً .

والواقع أن النبتة الحمقاء كانت في الوقت نفسه لأخرى . . . هي الآنسة « فرناند » التي أحبها بياريس في العام الذي سافر فيه . . .

سافر الزيات إلى باريس ليؤدي امتحان الحقوق الفرنسية ، وجلس في قاعة الامتحان وراء زميلته « فرناند » وجلس الأستاذ

الممتحن على منصة عالية بعيدة عن الطلبة ، وكان يوجه نص السؤال جاداً ، لا يعيده ولا يخلطه بكلمة تفتح باب الإجابة لمن يغلق عليه ، وكان أيضاً لا ينظر إلى الطالب . وأطلق الأستاذ سهم السؤال إلى الأنسة المسكينة فاختلست نظرة إلى الطالب المصرى ، وأدرك صاحبنا أن معنى النظرة : الحقنى ! فأبصر إليها بما ففتح عليها المغلق .

ويظهر أن سهم الأستاذ الجحاد المتجههم ، تحول بين الطالب والطالبة إلى سهم من سهام كيوييد فحككت فرناند لوالدتها ما كان من شهامة الطالب المصرى وفى اليوم التالى كان صاحبنا فى منزل الفتاة يلبي الدعوة إلى تناول الشاي

وكانت فرناند جميلة ، وصورتها منشورة فى الجزء الثالث من « وحي الرسالة » مع مقال « من الذكريات الجميلة » وفى هذا المقال يحدثنا عن صداقته لفرناند وآرائها وذكائها وشوقها إلى الشرق ، وعن زيارتهما معاً لمحاريب الفن فى اللوفر والأوبرا وفرساي ، وكل ما قاله قريباً من موضوع الغرام أنه كان بينه وبينها بعد عودته « رسائل مسكية المذاد ورذية الورق » ، تؤلف كتاباً من شعر القلب والعقل .

ومرة أخرى ، وبعد أن جاوز الأديب الكبير طور الشباب ،

وأصبح صاحب الرسالة ، وبالتحديد سنة ١٩٤٥ ، نرى فتاة تحاول أن تصبيه . . . ولعلها بلغت شيئاً من ذلك ، فها هو ذا يدخل محل « جروبي » فى الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ١٠ مايو سنة ١٩٤٥ — كما يحدثنا فى « قصة فتاة » بالجزء الثالث من وحي الرسالة — ليبحث عن الأنسة (س) فى أول لقاء بينهما ، وكانت العلامة المتفق عليها أن يعرفها بها ، نسخة من مجلة الرسالة على المنضدة التى تجلس إليها ، فهو لم يـ بعد الفتاة التى كانت تراسله منذ عام ، وها هى ذى قد حددت موعد اللقاء بالتليفون . ويصف لنا بحثه عن المنضدة والفتاة والرسالة فى « جروبي » وصفاً ظريفاً ، إذ يقول :

« لو كنت حديد البصر لنفضت المكان من بعيد ، فعرفت على أى منضدة تنام الرسالة ، وفى أى كرسى تقعد الفتاة ، ولكن البصر كليل ، والمساء مقبل فلا مناص من الجولان المتهم بالفضول ، ولا بد من النظر القريب من اللمس . على أنى توخيت المناضد المنفردة فجعلت وجهى إليها ونظرى عليها ، فلم أخط غير قليل حتى رأيت منضدة صغيرة ، عليها يدان رقيقتان تقلبان الرسالة ، وكنت فى خروجى برؤيتها من ربكة المشى وحيرة النظر أشبه بالزورق العائم فى ظلام المحيط أبصر فى المرفأ ومض المنارة ، أو بالسائر التائه

في مجال القفر سمع في الواحة نبض الحياة .

بدأت الفتاة تراسله في عزبة أهلها في الصعيد ، حيث كانت تعيش مع أخيها الأكبر بعد أن توفي والدهما ، وبعد أن قطعت عن المدرسة ، وكانت في شبه عزلة عن الحياة أو عما تبغى من الحياة . بدأت رسائلها بأسلوب التلميذة الراغبة في العلم ، ثم تطورت إلى صديقة طامعة في المعونة ، ثم أصبح أسلوبها في الطور الثالث أسلوب العاشقة الظامئة إلى الغزل ، بل صرحت بأنها لم تكن صادقة حين كتبت أول الأمر تطلب المعرفة أو تبغى النصيحة ، إنما أرادت أن تدخل في وضوح النهار على الكاتب من الباب العام ، وهي الآن تحسر برقع الرياء وتضع وجه المرأة أمام عين الرجل تقول له : ها أنا ذى لا أفكر إلا في الحب ولا أحلم إلا بالحبيب ، ولقد اخترتك لتكون الحبيب النائي . . . ويقول الأستاذ الزيات إنه كان يرد على رسائلها الأولى فيرشد لها ويسدى إليها النصيحة . فنراه مرة ثانية معلماً بالمراسلة ، بعد أن رأيناه مع عقيلة معلماً بالمشافهة ، وما أشبه الموقفين من بعض الوجوه .

وهو هنا يمسك عن الرد على الأنسة عند ما تكتب إليه : « يا حبيبي » يمسك هنا لأنه أستاذ كبير يخشى التبذل مع فتاة ، وقد كان يمسك عن مبادلة عقيلة الحب بدافع الوفاء

لصديقه ولكنه كان مشغولا بحب فرناند ، أو نقول باختصار :
كانت نبتة قلبه معها عاقلة . . . أما هنا مع الأنسة (س)
فلا أخليه من الاستلطاف والميل الذي لا يحد منه احتشام
الأستاذ الكبير ، وهو أديب زاخر الحس شاعر النفس
ومخصب الوجدان .

قصت الأنسة (س) على الأستاذ الزيات قصة فرارها
من الصعيد بعد أن علم أخوها بمغامرة لها مع ابن
البستاني في عزبتهم ، وضربها علة دامية ، وحرمها التزول
إلى الحديقة وضيق عليها حتى أصبحت كسجينة الزنزانة .
وقالت إنها نزلت عند أختها الكبرى في منزل لهم موروث بحى
المنيرة فى القاهرة .

وتكرر اللقاء بينهما ، وكان لقاؤهما الثانى فى مطعم
الكورسال ، وتحدثا على الطعام حديثاً طليئاً جرها إلى أنشودتها
الغرامية المعتادة ، ويقول لنا إنه استأنف نصحتها وإرشادها
فكان كمن يرقم على ماء أو ينفخ فى رماد .

وأنا لا أستطيع أن أبلغ ذلك ، وقع أم لم يقع . . .
يدعوها إلى المطعم فتقبل فى زينتها الكاملة وشنطة يدها المعلقة
على كتفها قد تدلت فى فراغ الحصر واستقرت على الجانب . . .
إلى آخر ما وصف ، ولم يصرح لنا كيف استعد هو أيضاً

« للرانديفو » وتعزف جوقة الموسيقى اللحن الذى يبعث النشوة . . .
ثم يلتقى عليها درساً فى الوعظ والإرشاد ؟ ! هذا كله يقف فى
زورى لا أستطيع ازدراده مهما حاولت .
ويفتن قلم الزيات فى وصف مغامرات الأنسة (س) فى
القاهرة ، التى كانت تحدثه بها فى مقابلاتهما . والقلم يتحرر
حين يروى صاحبه عن غيره ، ولكنه يُقَسِّرُ على الاحتشام
فيما يختص بممسكه . . .

يحدثنا عن تلك المغامرات على لسان الفتاة التى تقول :
ما كان أدهشنى حين علمت من نفسى أنى فتانة بالطبع ،
خداعة بالفطرة ، ألاحظ فيصبو الشيخ ، وأفتر فيخف الحليم ،
وأشير فيعنو المتكبر ، وأطلب فيسخو البخيل ، وأقلب فى
كفى النفوس والقلوب فلا أجد نفساً تتأبه عن ضراعة ، ولا قلباً
يتأبى على امرأة !

وظلت تغوى الرجال ، وكانت تختار منهم المحامين
والصحفيين والممثلين ، لأنهم يحسنون الحديث ، ويمجدون
الكتابة ، ويحملون الواقع . وأخيراً لقيها الذئب فى زى شاب
صحفى وضىء الطلعة ظريف الهيئة بارع النكتة لطيف الدعابة ،
قادها ليلة إلى غرفته فى سطح منزل ، فأسقط لها التفاحة . . .
وينهى الزيات القصة بحضور الأخ إلى القاهرة وأخذ أخته

إلى العزبة بالصعيد ، ولا أحد يعلم مصيرها ، ثم يختتمها بالعظة
والعبرة ويقول : فهل يضطر الذين لا يزالون لسوء حظهم
يغارون ، إلى أن يعودوا فيسألوا الله العصمة من ولادة البنات
أو يقولوا كما كان يقول الجاهليون : وأد البنات من المكرمات !!
هذا الختام الذى يوحى بكراهة ولادة البنات ، ويؤمى
إلى تسويغ الاضطرار إلى وأدهن ، إنما هو من رواسب النشأة
الأولى ، تغفل الفكر الذى استنار ، والأديب الذى نضج ،
والقلم الذى تحرر ، والشاب الحقيقى الذى أحب فرناند ،
تغفل ذلك الختام كل هؤلاء وأفلت . . .

محمد فريد أبو حديد

قصة الحب في أدب الأستاذ محمد فريد أبو حديد
— وفي حياته كما سأبين في هذا الموضوع — تدور حوادثها وعواطفها
وخوالجها حول الصراع بين الطبقات .

هو واحد من جيل من الأدباء عاشوا في ظروف اجتماعية
حددتها لهم الفترة الزمنية التي نشأوا فيها ، وهم هؤلاء الذين
نسميهم الآن « شيوخ الأدب » ، نشأوا في الطبقة الوسطى
في زمن لم يكن يتيسر فيه التعليم ، على العموم ، لمن دون
هذه الطبقة ، وكان المتعلمون من أبناء المتوسطين يعاشرون في
المدارس والمعاهد زملاءهم أبناء الطبقة العالية ، ويتولون بعد
ذلك وظائف يشعرون فيها بالتمييز والاستعلاء .

كان الأدباء من بين أولئك المتعلمين بين جناحي طائر ،
أحد الجناحين يجذبهم إلى أعلى حيث الجاه والسلطان ومودة
ذوى الجاه والسلطان ، ويهوم بهم الجناح الآخر نحو المثل
الإنسانية التي تملئها عليهم التزعة الأدبية فينعطفون نحو الطبقة
المتواضعة من الشعب .

ولعلك تأخذ من هنا حداً ، لا أقول بأنه فاضل تماماً ،
 بين أدب أولئك أصحابه وبين أدب جدّ بعدهم أكثر انعطافاً
 ونطقاً باسم الناس الذين نطلق عليهم لفظ « الشعب » ، ولست
 أذهب ، ولا أحب لك أن تذهب ، إلى الغض من أدب
 أساتذتنا الشيوخ ، فهو أدب رائع خالده أدى رسالته كما أملت
 عليه الحياة التي عاشها ومثلها خير تمثيل ، وإنما أنا بصدد
 المحاولة والاجتهاد في تخطيط ملامح عامة .

وفريد أبو حديد من أكثر الشيوخ مطاوعة للجنح المهوم ،
 واتجهاً نحو الجناح المهيض ، ويظهر ذلك بوضوح في
 قصص حبه ، فقد أحب ، أول ما أحب ، فتاة بدوية حدثنا
 عنها في قصته الطويلة « أزهار الشوك » وهو يتسمى في هذه
 القصة باسم « فؤاد » كما يسمى فتاته الأعرابية الحسنة
 « تعويضة » والقصة يقوم التركيب الخيالي فيها على أساس واقعي
 من أشخاص عرفهم المؤلف وجو عاشه معهم .

فؤاد الذي أحب تعويضة هو محمد فريد أبو حديد ،
 وإن كان هناك اختلاف بينهما اقتضته الحبكة القصصية ،
 فالأول طالب في السنة النهائية بكلية الحقوق ثم « وكيل نيابة »
 ووالده « الأفندي » كان في شبابه موظفاً ثم غادر الوظيفة وأثر
 أن يعتزل في الريف ، فاشترى قطعة من أرض بجوار قرية

« النجيلة » وبنى بها داراً أقام فيها مع زوجته ، ويقدم عليهما ولدهما الوحيد « فؤاد » إذا أتى الصيف . أما المؤلف فقد تخرج في مدرسة المعلمين العليا ، ونشأ في مدينة دمنهور ، وكان لوالده أرض في تلك القرية ، فكان يتردد عليها ويختلط بأهلها .

كان الطالب الشاب يميل إلى تعويضة ويرتاح إلى مخاطبتها إياه بقولها : « يا حاج فؤاد » على طريقتهما البدوية ، وكان من مباحج عطلة الصيف أن يقضى كثيراً من وقته في « غيظها » يساعدها في قلع النجيل من الأرض وتحويل الماء من المساقى لرى خطوط القطن ، وكان يرزوا إليها مأخوذاً وهي ترقص رقصة الأغراب في « الصابية » حين يجتمع أهل العزبة في الليالي القمرية ليعقدوا حلقة السمر بالفضاء المجاور لدار « الأفندي » . ونرى في هذا الحب الذي أحبه صاحبنا ، وفي حب بعده آخر ، وفي قصص حب أخرى كتبها سنعرض لها في هذا الفصل ، نرى أن الحب لا يكشف حبيته بحبه ، بل يظل يرقبها ويخالطها ويرزوا إليها في ارتياح وإعجاب ، لا ينطق بكلمة تم عن هواه ، وفي أكثر الأحوال يتحول الحب إلى صداقة ، فيكتب العاطفة الطاغية حتى تحطم فؤاده ، ثم يقيم الصداقة على أطلالها ، وهو يتحول إلى هذا الكبت بعد أن

تقف حواجز الاختلاف الطبقي في سبيل العاطفة وتمنعها من أن تأخذ مجراها الطبيعي .

هذا هو يشعر أن علاقته بتعويضة صارت إلى جد لا لعب فيه ، ويرى أنه يذهب إليها في الحقل بدافع لا يستطيع رده ، فإذا غادرها جعل يسترجع ألفاظها في نفسه ويحاول أن يدرك ما تنطوي عليه . يشعر بذلك ويفكر هل يستطيع أن يسمو بها ويخلق منها وهنا يتصدى له الحاجز الطبقي فلا يجرؤ على أن يضع كلمة « زوجة » بعد « يخلق منها . . . » ، فالوشم الذي يزين شفرتها وذقنها قد خالط دمها فلا سبيل إلى محوه أبداً ، وهناك وشم آخر أعظم منه أثراً لأنه في عقليتها وتفكيرها إن الحديث بينهما إذا جاوز التحية والحقل والغنم يهوى إلى لا شيء ومع ذلك لا يستطيع أن يمنع نفسه من الذهاب إليها ليملاً عينيه منها ويتنسم الهواء الذي يفوح بعطرها .

ذهب إليها وهي ترعى غنما لها في حوافي الحقل ، فاستقبلته قائلة :

— مرحباً بك يا « حاج فؤاد » .

— كيف حالك وكيف حال غنمك ؟

فحدثته عن نعجة ولدت خروفين وأتت إليه بالوليدتين

وهما يتواثبان ويشغوان ، وقال لها عن أحدهما :

— أراه حملاً ظريفاً ، ويا ليتك سميت به باسمي .

— ليس قدر المقام يا « حاج فؤاد » .

فهى أيضاً تحس بالجدار القائم بينهما كما يحس هو به ، ثم تجسم الحاجز المعنوي بين الحبيين المتفاوتين في شخص حبيب آخر للفتاة كان في الوقت نفسه صديقاً للفتى ، وهو شاب أعرابي اسمه « قوية » وكانت صداقة فؤاد لصاحبه الأعرابي أشبه بحبه للفتاة الأعراوية ، من حيث ما بين فؤاد وبين كل منهما من تفاوت ، وليس من الدقة أن نصف العلاقة بين الشابين بأنها علاقة بين تابع ومتبوع ، فإننا نرى فيها فؤاد تجتذبه في الفتى البدوي صفات إنسانية كامنة تحت المظهر الخشن الذي اعتاد المترفون أن يزدروه .

الشاب الأعرابي يحب تعويضة وهو يرى صديقه الكريم النبيل « فؤاد » يهتم بها رآه مرة في ليلة من ليالي السمر يحدثها ويصاحكها فأطرق بعد مرحة ولاذ بالصمت ، ورآهما مرة أخرى يقبلان معاً من الحقل يسيران بين النخيل ، وكان هو آتياً من القرية ، فعاد أدراجه واندس بين البيوت فغاب فيها .

وذات يوم تطرق الحديث بين الشابين إلى ذكر تعويضة ،

فقال قوية :

— أأست تحب أن تكون لك ؟

— من هى ؟

— تعويضة .

فغضب فؤاد ، وقال قوية :

— وهل كنت لأقتحمها عليك ؟

— !!!!!

— أليست تعجبك ؟

— وهبها تعجبني .

— إذن فمن أكون أنا حتى أتعرض لها !

— اسمع أيها الأحق ، أليس يعجبك منظر الزهرة !

— وهل هى كذلك عندك ؟

— هى كذلك ، وما أنظر إليها إلا كما أنظر إلى الزهر

والحقول والسماء والفضاء .

وارتاح الفتى الأعرابي إلى ذلك ، وانطلق فى مرجه يغنى

بلهجته البدوية :

يا نواره الشط زوى الطل عاليها

وصبحتها مساقى الورد تسقيها

يا نجمة الليل يالله معاى نراعيها

وإن نمت فى الفجر تبقى عيني تحميها

ويقول المؤلف إن فؤاد غضب وقال لصاحبه : اسمع أيها الأحمق . . . إلخ ، وما أرى في الموقف شيئاً يستحق هذا الغضب أو يدعو إلى الوصف بالحماسة ، فقد كان الفتى رقيقاً معه متسامحاً إلى درجة لا تتفق مع طبع أعرابي مثله . . . ولك أن تعجب أكثر من هذا لاقتناع الأعرابي بفلسفة الزهرة ومن قبوله لفؤاد « معجباً » بفتاته على هذا النحو الذى لا يقبله كثير من غير الأعراب !

وتزوج قوية تعويضة ، وكان فؤاد بالقاهرة وهم أن يعود إلى العزبة في العيد ، ولكن خطاباً أتى إليه من قوية يدعوهُ إلى شهود ليلة عقد زواجه ، فزق الخطاب وعدل عن السفر . . . فماذا تظن الباعث له على ذلك ؟ لا بد أن تقول إنه تجنب شهود هذا الزواج لما يشيره في نفسه من لواعج الهوى القديم ، ولكن المؤلف يقول إنه بعد أن مزق الخطاب قضى ليله مسهداً كئيباً يلوم نفسه كيف نزلت به حتى يتجرأ مثل هذا الفتى على دعوته في هذه البساطة إلى عرسه !

وهذا موطن من المواطن التي ينجذب فيها فريد أبو حديد إلى الجناح الأرستقراطى أو بتعبير أدق إلى جناح الطبقة المتوسطة البرجوازية .

لقد كان كغيره من شيوخ الأدب ، بعد أن نالوا ما نالوا من

مكانة أو منصب أو مال ، يجاذبه ذلك الشعور الذى يبدو أحياناً فى كتابتهم مهما جاهدوه .

ويمثل الحب الثانى لفريد أبو حديد تلك المجاهدة
وجاء هذا الحب على أثر حب تعويضة ، فإنه ذهب إلى شاطئ الإسكندرية فى الصيف التالى « عسى أن ينسى عنده ما مر به من مخافات ! »

وكلمة « مخافات » هنا لا تعجبني لأن المقصود بها أحداث الحب الأول وذكرياته . وفى الإسكندرية التقى بصديقه سعيد الذى كان طالباً معه فى المدرسة الثانوية ، ثم التقى بعلية أخت سعيد وقضى معهما أياماً يصفها بأنها « ملأى » ، ولم تكن كذلك لأنه استعاد مودته الأولى لصاحبه فقط ، بل ملأتها المودة الجديدة التى توثقت بينه وبين علية الحسنة المنعمة المرحبة الطروب . ومع هذا لم يذهب من نفسه طيف تعويضة ، وقد هزته ذكراها عند ما دخل مرسم سعيد ، وكان هذا رساماً ، فرأى صورة جميلة من الشوك تطل بين أشواكها أزهار باسمه ناضرة لها ألوان لا يشبهها فى روعتها شىء مما تقع عليه العين فى البساتين الضاحكة . وقف فؤاد أمام الصورة مشدوها ، فقال سعيد :

— أزهار الشوك يا فؤاد .

— أزهار الشوك !

— هل أعجبتك ؟

— إنها قطعة من الإنسانية . ألا تسميها البدوية الحسنة !
ولم يكن في باله غير تعويضة التي تشبه في إشراقها داخل
ثيابها وحياتها الخشنة ، الزهرة اليانعة بين الأشواك . كان إذا
خلا إلى نفسه بعد لقائه لعلية ، تقفز إلى خياله صورة تعويضة ،
فيقارنها بصورة علية . . . فيحار بينهما ، إذ يراها طرفي
نقيض : علية فتاة مزهوة تحس بنفسها وتعرف مقدار حسناتها ،
فيحملها ذلك على شيء من التكلف يقلل من بهجة حسناتها ،
كانت تشارك في مؤسسات الخير وتعاون على أعمال البر ،
ولكنها كانت تفعل ذلك وهي شاعرة بأنها قوية تمتد يدها إلى
الضعفاء ، كأنها ترضى كبرياءها بالعطف على الفقراء ،
وكانت تحس كأنها تحلق عالية فلا يضيرها أن تمتد يدها إلى
من هم في أدنى الأفق وهي تشعر بالزهو . أما تعويضة الأعرابية
فهي لا تعرف شيئاً من ذلك ولا تحسه .
ويقطع فؤاد مع علية شوطاً كبيراً ، ولكن على طريقته . . .
في الاكتفاء بالحب من جانبه ، وقد كان يحدث علية في كل
شيء دون أن ينطق بكلمة أو يأتي بحركة تدلها على أن قلبه
ينبض . . . وذلك على رغم إغرائها . . . أخذت ذراعه وسارت

به نحو عريش في ركن الحديقة ، وأحس لمس يدها ساحراً
يغمره بالسعادة ، ولكنه لم يزد على امتداح عنايتها بالحديقة
وأصصها وأزهارها ، وقالت له مشيرة إلى « العريش » : لقد عرفت
أن ذلك المجلس يعجبك . فسر بذلك في نفسه لأنها لا بد
ذكرته وهي ترسم هذا العريش وجلست على مقعد ونظرت
إليه كأنها تدعوه إلى الجلوس ، وفاح في الهواء عطر خفيف
من أزهار العريش يمتزج بالعطر الذي يفوح منها ثم لم
يكن منه إلا أن جلس يمتدح المنظر ويصفه بأنه قطعة من الفن .
يقول لنا إنه همّ أن يأخذ بيدها بين كفيه فيرفعها إلى شفثيه
يقبلها ثم يتدفق لها بما في نفسه فيكشف لها عن الحب الذي
يجيش في قلبه قوياً صادقاً صافياً . ولكنه . . . همّ فقط !
والأستاذ فريد أبو حديد يغرق كثيراً في وصف الطبيعة
وجمال مناظرها دون أن يؤدي استغراقه فيها إلى نتيجة في
الموقف وهي طريقة معروفة عند الأدباء الخياليين ،
ولكن ذلك الوصف حين يقصد لذاته دون أن ينسجم مع
الحركة البشرية يصبح شعراً عاجياً منعزلاً وهو في كتابة أدينا
الكبير يخاصم نزعتة الشعبية الواقعية ويتنافر معها .
وأنا لا أعلم أية فائدة للحديقة وأزهارها ومناظرها وأريجها ،
ولا للبدر يطل من بين أغصانها . . . إذا لم يبعث كل ذلك

فى النفس نشوة إيجابية، فيدفع المتردد إلى الإقدام والمتلعم إلى الإفصاح .

وكان من الطبيعى ، الذى عجب منه ، أن أخذها منه فتي وسيم يعنى باختيار كرافتته وتفصيل بدلتة ، إذ تقدم هذا إلى خطبتها وتزوجها ، على حين أحجم صاحبنا متشبثاً بذلك الحاجز الخالد فى أدبه .

فعلية فتاة متكبرة متغطسة ، وهى وإن كانت من طبقة فؤاد الاجتماعية إلا أنهما مختلفان فى الفكر والمزاج من حيث النزعة الشعبية التى تجاهد أدينا ويجاهدها . . . إذ نراه يحب فيها ويضع ، ثم نراه يحس بمعرتها فينفر منها ، فإذا جاء إلى علية المنعمة لم يعجبه منها ترفعها ، فأقام بينه وبينها جداراً . ولعله تعلق بذلك الجدار ، لينسب إليه تردده وعدم إقدامه ، وهو يعلل هذا التردد بأنه تعود بساطة الريف فهو لا يميل إلى مفاتن المدينة وملاهيها ولا يرتاح إلى مجامعها الصاخبة . ولا إلى أنوارها التى تكاد تعشى العيون ، ولكن علية تحب كل هذا الذى ينكره ، وتجد فيه متعتها ، فلهذا لا يستطيع أن يتخذها زوجة ، ولكنه فى موضع آخر جعل يتمثل صورتها ويقول : أهذه الصورة الوديدة هى التى اختارت صدقى «زوجها» وآثرته عليه وعرها لألاء مظهره ؟ أهاتان العينان

الزرقاوان الصافيتان هما اللتان لم تستطيعا النفوذ إلى أعماقه لتبصرا ما هنالك من حب صاف .

الحق أن الأدباء والفنانين يخدعون أنفسهم بتخيل المرأة على غير حقيقتها كأنثى يصيبها الشاب الباسم المرح المتأنق الوسيم . المرأة كالفراشة تجذبها الأضواء ، فإذا أقبلت على الأديب الفنان فإن الذي يجذبها ضوؤه الظاهر . . . مكانته وشهرته ، وهي لا تقدر فيه أصالة فنية ولا صفات موضوعية ، ومن تشذ عن هذا فينفذ تقديرها للأديب إلى الأعماق ، فهي مثله . . . كل منهما حرمة التفكير وقوة النفوذ إلى جوهر الأشياء—
نضارة الجسم ووسامة المظهر .

وقد نشأ عن تردد فؤاد في مفاتحة عليه بحبه إياها أن ظل الأمر بينهما في الظاهر أمر صداقة ، ولا ندري ماذا كانت تكن له ، وهي تقول له مرة : إنني أنظر إليك دائماً كما أنظر إلى أخي ! وهذه كارثة في الغرام لا شك فيها . . . تنظر إليه كما تنظر إلى أخيها ؟ إذن فقد عاد المحب ، الوهان من جولة الهوى بالخبية والفاجعة في قلبه . . . وانتهى به الأمر إلى الصداقة . وهي في حياتها الزوجية ، إذ « بدأ يحس نوعاً جديداً من السعادة أفسح مما كان يخيل إليه ، أحس أن المودة الصافية التي جمعت بينه وبين عليه تمتعه من السعادة بأضعاف ما كان

يستطيع أن يجده في أية صلة أخرى ، حتى لقد سأل نفسه :
أليس هذا هو الحب الأول ؟ أليس ذلك هو الحب الذى
يتحدث عنه رسل الإنسانية في غير تخرج .

وهذه النهاية أو هذه الذروة التى رفع إليها الحب ، وهى
الصداقة الصافية ، هى شعشة للحب . . . الحب بين الرجل
والمرأة ، وليست صداقة من نوع ما يكون بين أفراد الجنس
الواحد . . . هى — كما يبدو لى — حب حوله الإخفاق إلى
هذه المرتبة التى استراح فيها الشعور المكدود وأوهم نفسه بأن
فيها من السعادة أضعاف ما فى أية صلة أخرى .

وكذلك فعل الأستاذ فريد أبو حديد فى قصة زنوبيا ملكة
تدمر ، ويخيل إلى أن الخط الرئيسى لهذه القصة هو الصداقة
أو الحب الذى كبت فاتخذ مظهر الصداقة بين الملكة وبين
معلمها الفيلسوف « لونجين » ففى القصة حب بين هذه الملكة
وبين زوجها « أذينة » ملك تدمر ، وفيها أحداث وحروب
وأهوال ، ولكن الخيط النفسى الدقيق الذى ينتظمها هو تلك
العلاقة التى تحس فيها بملامح لشخصية فريد أبو حديد تظهر
فى شخص « لونجين » ذلك الفيلسوف الذى يشتمل فى قرارة
نفسه على حب مكين لزنوبيا ، ولكن « الحاجز الطبقي »
— كما هو دائماً — يقف عقبة فى سبيل هذا الحب .

كيف يجرؤ معلم يقرأ للملكة كتب الفلسفة على أن
يفصح عن حبه إياها ؟ إذن فليغش بجوارها « كتاباً متنقلاً »
تقرأ فيه عند ما تريد فلسفة أفلاطون وإلياذة هوميروس .
ولكن الرجل الذى يشتمل عليه هذا الكتاب له قلب ينبض ،
ونفس تحس ، وأمل يحيش كان يكتب مشاعره ،
ولكن الملكة تسأله يوماً :

— طالما حدثتني عن أفكار الفلاسفة فحدثني عن نفسك ،
وقل لى كيف ترى المرأة ، ألم تعرف المرأة يا لونجين ؟
— عرفتُها ، عرفتُها يا مولاتى كما عرفت الرجل .
— قل لى إذن كيف أنت منها إذا أحببتها .
— أهب نفسى لها .

— حدثتني عن نفسك ، قل كيف تحس ، وكيف تفكر ،

وكيف تعمل .

قل لى إن كنت قد أحببت امرأة ؟

فينفجر الفيلسوف قائلاً بصوت متهدج :

— عرفت امرأة واحدة ، عفتها لأنى أحببتها ، وددت
لو أن الحياة كانت شيئاً يعطى فأهديها إليها ، فهكذا الرجل
أو هكذا أنا . لم يخلق الرجل إلا ليكون عبداً وخلقت المرأة
لتكون مالكة . أجل يبيع نفسه من أجل الحب ، يبذل للمرأة

كل شيء عنده ، يهب قوته وقدرته وحيلته ، ويسخر مهارته وقسوته وشجاعته ، ويهدي علمه وفنه وحكمته . يبذل لها كل ذلك ويقنع منها بأن يحبها ولو لم تحس هي بذلك الحب . ويقوم الجدار بينهما . . . فيتحول النبض الحي إلى أفكار مجردة عن الحب والمرأة والرجل . وتلقى المرأة التحية إلى معلمها وتذهب إلى مخدعها . ويقف هو هنيهة ويدور رأسه ، فيرمى على كرسيه يناجي نفسه :

— أيها الكتاب الأبله . . . أيها الحكيم الشقي !
هنا ، كما هناك ، « الحاجز الطبقي » ، والحب الذي يقنع بأن يحب الحببة التي لا تحس بنجبه ، والصدقة التي يتسامى إليها الحب .

ظل الجدار قائماً بينهما حتى النهاية ، فقد كانت الملكة تحدث الفيلسوف وهو يحدثها عن الحب والمرأة والرجل ، ثم تنهى الحديث بقولها :

— هل عندك كتاب لأفلاطون تقرأه ؟
ظل الرجل يقرأ قانعاً بصداقته الرفيعة أو حبه المكبوت . ظل كتاباً تقلّب صفحاته حتى طويت آخر صفحة فيه بأن قتل في سبيل المرأة التي اعتصمت دونه بجدارها الملكي . وفي قصة « أبو الفوارس عنتره بن شداد » نرى الكفاح

الطبقى في الحب فعنتره الذي رفض أبوه أن يعترف بينوته ،
لأنه أتى به من جارية ، أحس بهذا الوضع المهين ، وعظم
إحساسه به عند ما اشتد حبه لعبلة ، فدفعه هذا الحب إلى
الكفاح في نيل الحرية حتى انتزعها بسيفه وحمل أباه على
الاعتراف به . كان يتعذب بحبه وهو قريب من حبيبته كل
القرب بعيد عنها في الوقت نفسه كل البعد . . . قريب منها
كعبد من العبيد يقوم بخدمتها ، بعيد عن أن يكون
إنساناً في إبداء شعوره الذي يضطرم في نفسه نحو ابنة السادة .
ونرى هنا « فريد أبو حديد » يتقمص عنتره ، إذ يقضى حقبة
طويلة يحب عبلة بينه وبين نفسه وينطوى على مشاعره . . .
وهو في هذه المرة مرغم حقيقة لا يستطيع أن يجاوز حده ،
ولكن البطل عنتره يكره المؤلف على أن يتقدم به جريئاً عند ما
يستكمل حريته ليخطب عبلة ، ثم يتمكن المؤلف في موقف
آخر من أن يتأخر بعنتره ويلزمه الانطواء . وذلك بعد ما عاد
عنتره من العراق يحمل الأموال والهدايا التي أعدها لعبلة مهراً ،
وإتحافاً . إذ جعل يفرق الأموال في العرب ويبعث بالهدايا إلى
عبلة لتكون حلية لها يوم زفافها إلى الذي خطبها في غيبته . . .
ويضرب في الصحراء يصيد طعامه . ولكن القوم غلبوا انطواء
المؤلف في الحب وتقدموا بعبلة يزفونها إلى عنتره .

أما «آلام جحا» فهي ظل لآلام المؤلف ، الذى صاغ قصة جحا صياغة بارعة ذات موضوع إنسانى فلسفى ظريف .
والذى يسترعى الانتباه فى قصص فريد أبو حديد أن القارئ يجده أو يجد ظللا له فيها ، وهذا يدل من غير شك على الأصالة والصدق .

جحا يعبر عن الآلام والمتاعب التى يعانها من زوجة سيئة تخالفه فى كل شىء وتجعل حياته جحما لا يطاق .
ويصبر على أذاها حتى يتاح له أن يتخلص منها . ونراه آخر الأمر يحب ويتزوج من يحبها ، ويوفق فى حبه وزواجه ،
لأنه بنى حبه فى هذه المرة على إدراك سليم يوجه عاطفته توجيهها سليما ، ولم يكن كذلك فى الزواج الأول . ويقر على شاطئ السعادة بعد أن عانى ما عانى من اللجة الحمقاء .

وفى حب جحا كذلك «حاجز طبقي» وفيه انطواء واكتفاء بالمشاعر من جانب واحد ، فقد رأى ابنة السلطان فى هودج فلمح فيها ملامح بنت كان يحبها وهو صغير ، فحول خياله تلك البنت إلى علية ابنة السلطان . وهو يعلم أن لا سبيل له إلى بنت السلطان ، ولا بأس بذلك ، أليس هو يحبها ؟ هذا يكفى . . . فهو يكافح الجدار القائم بينه وبينها بشىء يسير جدا . . . بالخيال ! وهو لا يعبأ بكلام الناس وسخريتهم من

أن يتناول إلى مقام لا ينبغي له ، فهو فقير حقاً وضعيف الجاه ، ولكن ما الذى يمنعه أن يتطلع إلى صورتها ومن يستطيع أن يحجب عنه العوالم التى يكشفها بتأمل حبها ؟ وليس ثمة شىء يستطيع أن يمنع خيال جمها . . . هذه « نجوى » الصالحة الكريمة أخت صديقه ، التى رست عندها سفينة حبه . . . إنها تشبه على التى ظل حيناً يتأمل حبها على رغم الفوارق ، فلتكن هى نجوى وليس يهم الاسم أو غيره ، المهم هو الصورة التى تفتح فى قلبه كل شىء ، وهل كانت على إلا تلك البنت التى أحبها صغيراً ، فلم لا تكون نجوى كذلك ؟

وكان يوماً من أيام الربيع ، تفنن الأستاذ أبو حديد فى وصف أزهاره وأطياره وأثر الشذا والتغريد فى إنعاش النفس ، ذلك اليوم هو الذى رأى فيه نجوى وأحس بحبها . وهذا من القليل ، بل النادر ، الذى يصنع به مؤلفنا الكبير جواً يلائم فيه بين جمال الطبيعة وما يجرى من أحداث . فهو كلف بهذا الوصف حتى يخيل إلى أحياناً كأنه يقول للقارئ :

تعال نتمتع بسحر الحقول والبساتين ، ولندع هؤلاء الناس الذين نتحدث عنهم يستريحون قليلاً ، بل كثيراً .
وبعد كتابة ما تقدم ظهرت القصة الجديدة « أنا

الشعب « للأستاذ فريد أبو حديد ، وفيها حب ، له الخصائص التي عرفناها : انطواء مكبوت وكفاح للتغلب على الحاجز الطبقي ، وأبادر أولاً فأقول إن الميل إلى الجانب الشعبي في هذه القصة يكاد يصبح اندماجاً ، فقد تمحضت النزعة الشعبية للمؤلف وخلصت من شوائب « البرجوازية » في العهد الجديد ، عهد الثورة .

كافح بطل القصة في حياته العملية التي اتصلت بالحياة العامة ، وفي حبه الذي بدا فيه عاملاً يذهب بالخضر والفاكهة إلى بيت صاحب العمل ، فيرى هناك ابنته ، فيلعب معها في الحديقة وبعد أن كان يستنكف من الذهاب إلى المنزل بتلك الأشياء صار يشعر بالارتياح من أجل الفتاة كلما كلفه الرجل بخدمة يذهب فيها إلى البيت . وتطور الارتياح إلى حب ، ولابس الحب ما عهدناه في حب المؤلف ، الذي يحبه أو الذي يكتبه . فقد ظل الفتى إلى النهاية يكتب مشاعره ويتجنب أن يكشف للفتاة هواه .

كان في فترة قطعت علاقته فيها بأبيها - يتعمد المرور بيئتها لعله يلمحها من بعيد فإذا لمحها عاد إلى بيته كأنه يطير على الهواء ، ويتصبر بالسعادة التي فاز بها عدة أيام . ومات أبوها ، وراح هو يرعى مصالحها ، ويسعى في

دفع ما يراد بها وبأسرتها من أذى ، وهو ساكت عن كل
ما ينم عن عاطفته ، حتى كادت الفتاة تقول له إنها تعتبره
كأخيها ولكن الله سلم .

محمد سعيد العريان

قصة حب « محمد سعيد العريان » هي قصة حياته في أول شبابه ، وربما قبله ، وهي كذلك قصة أدبه . صهره الحب ، ودفعته دوافعه فكتب عن أشواقه وأشجانه ، وجدَّ في طريق الأدب مستجمعاً قواه ليغرق في لجة الجهد الأدبي ما يعانيه من الوجد وما يقوم من العقبات في سبيل الوصول إلى أمنيته في الحب .

ولم يكد يتغلب على العقبات الأولى وينعم بحبه نحو أربع سنين غصبها من يد القدر الشحيحة ، حتى فجعته في شريكة حبه الفاجعة التي لا رادَّ لها ، ولكنه ظل يكتب ويقرأ ، يصور أشجانه ، ويُكَب على القراءة والكتابة ليغرق آلامه في اللجة... وتغلب على مأساته في هذه المرة باقتناعه ويقينه أنه يعيش على ميعاد لا بد يأتي ، وكل ما يلقاه قبل الميعاد لا يستحق الاكتراث .

نشأ سعيد العريان في بلده مدينة طنطا ، وهذا هو هناك شاب يتطلع إلى دنيا الأدب ، وقد اشتمل قلبه على حب

فتاته التي نشأ قريباً منها صغيرين ، فيتصل بالأديب الكبير « مصطفى صادق الرافعي » الذي كان يقيم في « طنطا » ويشغل فيها وظيفة كاتب في المحكمة

وتوثقت الصلة بين الأديب الشاب المتطلع وبين الأديب الكبير الذائع الصيت الذي كان يذهب إليه قاضي المحكمة في مكتبه بين الموظفين ليسلم عليه ويمدح الفرصة السعيدة التي تجتمع به وكان للرافعي - على محافظته وتدينه - جولات في الحب . وكان العريان ، ولا يزال ، محافظاً ومتديناً مثله ، ولكنه في الحب لم يكن له غير الجولة التي استغرقت حياته .

ولعل أعجب جولات الرافعي الغرامية ما يحدثنا به الأستاذ سعيد في كتابه « حياة الرافعي » فيقول إنهم - سعيد وشابين آخرين - كانوا يسمرون مع أستاذهم ذات ليلة كعادتهم فقال له أحدهم :

إن في متزّه البلدية فرقة تمثيلية هبطت المدينة منذ أيام وفيها مغنية راقصة جديرة بأن توحى إليك

فقط الرافعي شفتيه ولم يعجبه الاقتراح ، فعاد الشاب يقول : ولكنها راقصة ليست كالراقصات إنها صوامة قوامة تصوم الشهر وستة أيام بعده ، وتقوم الليل إلا أقله وتصلي الخمس في مواعيد الخمس ، وما أحسب رقصتها وغناها

إلا تسبيحاً وعبادة . . !

وهكذا عرف الشاب الطريق إلى قلب الرجل المتدين الذى يميل إلى الجمال ويسعى إلى سحره فى الأثنى ليستوحيه فيما يكتب ، وصدق الرافعى كلام الشاب . . . وذهبوا إلى متنزه البلدية ، وأشرأب الرافعى ينظر من وراء الصفوف إلى الراقصة المقدسة . . . إنه يرى صدرأ ناهداً وقواماً أهيف وعينين حالمتين وشفة باسمة . . . إلى آخر ما يرى من أدوات السحر وأسباب الفتنة . . . ولكنه على ذلك كله لا يريد أن يراها كما يراها باقى الرجال ، إنهم يرونها أنثى فاتنة ، وهو يراها عابدة تسبح وتصلى ! إنه يراها « فى اللهب ولا تحترق » . وكان هذا عنوان مقالة بمجلة الرسالة .

ثم دعا الرافعى صديقه الشاب صاحب الاقتراح ، ليستزيده من أخبار الياقوتة الكريمة « الراقصة العابدة » ويسأله الوسيلة إلى لقاءها ، لعل هذا اللقاء يفتق ذهنه عن موضوع جديد يكتبه لقراء الرسالة ، وراح الشاب يدبر الوسيلة ، ولكنه غدا إلى الرافعى نبأ فرارها مع موسيقار الفرقة وذهاب زوجها فى أثرها . . . وعاد الرافعى بعد أن عرف فرحة الشاب ، إلى مقاله فى الرسالة يقرأه وهو يضجك ويقول :

— أهذا ممكن ؟ أتكون فى اللهب ولا تحترق !

فيرد الشاب :

— لقد احترقت !

كان الرافعى يرى « أن النابغة فى الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق » و « أن المرأة للشاعر كحواء لآدم ، هى وحدها تعطيه بحبها جديداً لم يكن فيه ، وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلاً . . . »

ولذلك كان يحب ، يسعى إلى الحب ويبحث عنه ، لأن فى نفسه شعراً يريد أن ينظمه أو رسالة فى الحب يريد أن يكتبها ، فإذا بلغ مأربه ، لا ممن يحب ، بل من القصيدة أو المقالة . . . فقد انتهى الأمر . . . أخذ من حواء جديداً لم يكن فيه ، ولكنه تعلم من درس أبيه آدم ألا يدع حواء تتخطى به السموات نازلاً . . .

وكذلك كان شأنه مع « مى » التى كانت جولته معها أهم جولاته فى الحب . ولم تكن « مى » حواء كاملة . . . على نحو ما أشرت إليه فى غرام العقاد ، وقد كتبت للرافعى : « إن أمى ولدت نفسى ونفسى هى ولدتنى ، فلا ترج أن تصيب فى طباع أنثى ، وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب » .

وللحكم على هذا النوع من الحب وما يوحىه من أدب مجال آخر . وإنما أريد أن ألقى ضوءاً على حب الرافعى

باعتباره أستاذاً وصديقاً لأديبنا الأستاذ العريان ، ولا شك أن تلك الظروف تعتبر البيئة الأدبية الأولى لصاحبنا . ويهمننا منها ما يتعلق بالحب والغرام .

سعيد العريان متدين محافظ كالرافعى ، وهو مثله أيضاً ومثل أى أديب فنان ، رقيق الطبع خفاق القلب ، يهفو فؤاده إلى الحسن وخاصة حين تنطق معانيه فى المرأة ، ومعانى الحسن وأشكاله ليست شيئاً متفقاً عليه عند الجميع ، فلكل مزاجه ومذاقه ، وقد رأينا الرافعى يتصورها فى الراقصة تسبيحاً وعبادة ، وما أبعد هذا التصوير عن الكثير من الناس . وكذلك يختلف كل عن الآخر فى نوع حبه ، وقديماً يختلف مجنون ليلى عن عمر بن أبى ربيعة ، كما يختلف روميو عن دون جوان .

كان العريان كالرافعى فيما ذكرت ، ولكنه يختلف عنه فى الحب ، كان الأستاذ الشيخ مثل « دون جوان » فى التنقل وطلب الحبايب ، وإن كانت أهدافه غير أهداف « دون جوان » ولكن التلميذ الفتى كان كروميو وقيس . . . أحب واحدة ، ولاقى فى سبيل حبها أهوالاً وصعاباً وثبت على حبه ، وأذكى ناره بما كتب وما نظم ، ولم يكن هذا الذى كتب ونظم هو الهدف من الحب كما كان عند الرافعى ، بل كان خطباً له كما

كانت نفسه ، بل كان هو ونفسه شيئاً واحداً . . .

كان العريان مشغول القلب منذ سنوات عند ما صحب صديقه الكبير فى زيارة الآنسة « م » معلمة الموسيقى فى إحدى مدارس البنات بطنطا ، وكانت تلحن للرافعى نشيد « بنت النيل » و « اسلمى يا مصر » . وعلى أن الرافعى أصم لا يسمع قصف المدافع فإنه كان يجلس أمام الآنسة الموسيقية وهى تعزف على البيانو ، ينقر على الأرض بعصاه ورجليه ، ويهز رأسه ، ويرنح جسمه ، كأنه يسمعها بعينه ، أو قل إنه كان يخيل إلى نفسه أنه يسمع العزف حقيقة كما تخيل الراقصة فى محراب العبادة .

وأراد الرافعى أن يصنع جواً عاطفياً بين صديقه الشاب وبين الفتاة الموسيقية ، ليتأمل ويتفكه ويستوحى . . . فطلب من الفتى أن يعطيه ورقة بها زجل كتبه فى حبه ، وكان قد أطلعاه عليه قبيل الزيارة ، وأخذ الرافعى الزجل ثم أعطاه للفتاة وهو يهمس فى أذنها ، فأخذته وقرأته ، وكان قطعتين مطلع الأولى :

يا ورد شوقى وشوكك عاملين مؤامرة على
الشوق يجرح فى قلبى والشوك يجرح إيدى
ومطلع الثانية :

بين المنى والفراق ضيع شبابه وشبابي

وابتسمت الفتاة ، وظهرت على وجهها حمرة الخجل والنشوة . . . فقد قال لها الرافعي عند ما همس في أذنها :
إنه يقصدك بهذا لأنه أحبك !
وعند ما انتهت الأنسة « م » من العزف قامت وأحضرت مسكرات فاخرة وقدمت . . .

وقال الشيخ للفتى عند انصرافهما : إنها تحبك !
وابتسم الفتى في عدم ارتياح . . . ما له ولهذا الفتاة التي لم يكن يطلب عندها أكثر من أن تلحن له ما قاله من الزجل في حبيبته التي تقف في طريقه إليها أشواك التقاليد ، ويحرق شوقه إليها فؤاده ، ويوشك أن يضيع شبابه وشبابها بين المنى والفراق .

وكان سعيد يلاحظ اهتمام الأنسة « م » به في الزيارات « الفنية » التالية ، ويضيق بهذا الاهتمام ، والرافعي يواصل إشعال النار في الفتاة ، ويحاول إشعالها في الفتى ، ويتأمل ويتفكه ، عساه يستوحى مقالا للرسالة . . .

وأذاع الرافعي بين المعارف والأصدقاء أولا ، ثم شاعت الإشاعة في البلد ، أن سعيد العريان وقع في غرام « م » . . .

وانزعج سعيد ، وزاد انزعاجه عند ما عرف أن الخبر وصل إلى فتاة أحلامه . . . فامتنع عن الزيارات الفنية وتجهم في وجه « م » الذي كان يبتسم له إذا قابلته في الطريق . . . أحب سعيد فتاته وهو في نحو العشرين من عمره ، وكانت من أسرة محافظة في « طنطا » وكانت قرابته لها سبباً لتردده على المنزل ولقائه إياها ، ودفعته هذه العاطفة إلى التودد إلى والدها ، فكانت بينهما شبه صداقة مع القرابة ، فكان الوالد يقربه إليه ويرحب به ، وكانت « مراسيم » الحب تسير وفقاً لتقاليد المحافظين . . . لا يقول لها : أحبك . ولا تقول له : وأنا أحبك . وإنما كان يحدثها عن أى شىء عادى ، فيحس كل منهما أن صاحبه لا يحدثه عن هذا الشىء وإنما يحدثه عن حبه . . . وكان الفتى إذا ذهب إلى المنزل وجلس مع الوالد ولم يشعر بوجود فتاته ، ضمنَّ السؤال عنها كلاماً عرضياً ، فيجيب الوالد إجابة مشابهة ، ويحس الفتى كأنه يخطبها من أبيها ، ويحس الأب كأنه يقول له : وقد قبلت ! . ثم بدا للفتى أن يتقدم خطوة رأى أنها ستتيح له حقاً ثابتاً وفرصاً أكثر في اللقاء . إنه لا يزال طالباً في دار العلوم ، ولكن ماذا يمنع من أن يتقدم لخطبة الفتاة وقد قارب التخرج ؟ وخطبها ، ورحب به الوالد الكريم القريب الصديق . ولكن . . .

ليته ما خطبها . . . ! فقد وقعت الكارثة وانعكس الأمر . . .
 وحكمت التقاليد بأن تحجب الفتاة عن مخاطبها ويمنع من
 رؤيتها ، فإذا أتى للزيارة جلس مع الوالد فقط وأقفل بينهما
 وبين الداخل « باب الحريم » وإذا ذاك بدأت فترة الوجد الذي
 ظلت ناره تكويه نحو عشر سنوات ، فإنه بعد ما أتم دراسته
 وأصبح مدرساً بإحدى المدارس في طنطا بادر بمحاولة القضاء
 على « التقاليد » فطلب كتب الكتاب ، ولكن التقاليد كان
 لها عمر ممدود ، إذ كان للفتاة أخت أكبر منها لم تتزوج ،
 ولا ينبغي - في عرف التقاليد - أن تتزوج الصغرى قبل
 الكبرى .

ضاق الفتى بحجب الفتاة عنه ، واشتد سخطه على الوالد
 الذي خاب فيه أمله ، وأصبح - وهو المحافظ - ثائراً على
 التقاليد ، وصب جام ثورته في قصة نشرت بمجلة الرسالة في
 ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ تحت عنوان « تقاليد » وهي من
 بواكير أدبه ، والمتأمل فيها لا يراها قصة بالمعنى الفني وإن
 كانت قد نشرت بالمجلة في باب « قصص » إنما كانت حملة
 على التقاليد وعلى الوالد الذي تمسك بها ، وقد وضع له اسماً
 غير اسمه ، كما غير اسمه واسم الفتاة . والعجيب في هذا
 الموضوع أنك ترى سعيد العريان المتشدد في المحافظة وصيانة

المرأة من الرجل الغريب ، يحمل علم الثورة على « التقاليد » وعلى من يتمسكون بها وقد حمل حملة شعواء جانبى الفن القصصى ، ولكنه كان على مقتضيات هذا الفن حينما اصطنع السخرية والتحليل المناقشة الواقعية المنطقية .

ولست أدري هل بقى الأستاذ الكبير، إلى الآن على رأيه فى الثورة على التقاليد ، وإن كنت أعلم أنه لا يزال محافظاً فى حياته العائلية ، ولا أظنه عند ما تخطب كريمته إلا متمسكاً بالتقاليد التى ثار عليها فى شبابه . . . وما أراه فى ذلك مناقضاً نفسه ، وإنما أراه أنانياً طالب لنفسه ما يحرمه على غيره ، ومتى خلاص الإنسان من الأنانية . . . ؟ على أن لك أن تقول : إنه عند ما طالب بحقه فى الاختلاط بها كان يثق بنفسه ويعلم أنه مأمون . . . ولكنه الآن لا يثق بأن الشاب الحديد مأمون مثله . ولى أن أقول : وكذلك كان الوالد الأول ، ومن له بالثقة !

ولهذه المحنة آثار فى مواضع من أدب سعيد الحريان ، منها ما كتبه فى قصة « رجل وامرأة » فى مجموعته القصصية « من حولنا » — قال عن زوجين لم يتفقا فى حياتهما الزوجية : « ولو أن الحجاب بينهما فيما بين الخطبة والزفاف لم يكن فى حراسة التقاليد لتفاهم قلباهما على الود الكريم ووضعاً الأساس

لحياة الغد على غير جرف هار من الوهم والخيال .
وقد جاءت هذه الفقرة في القصة فيضاً من نفس الكاتب
المملوءة بالسخط على التقاليد ، دون أن يوجه باله إلى أنه كتب
في أول القصة عنها أن البطلين اختلطا قبل الزواج إلى حد
أنهما « استبقا الأوان فمئحته من ودها على غفلة من الأهل
أشياء في إباء الراغب ورغبة المتأبى . . . »

ولكى تعلم مقدار المفارقة في حملة الأستاذ العريان على
التقاليد مع محافظته أسوق وصفاً له كتبه عنه الرافعى في الجزء
الأول من « وحى القلم » في مقال « س. أ. ع » وكان قد كتبه
عن الشبان الثلاثة الذين يصاحبونه ويسمرون معه ، و « س »
هو سعيد ، قال الرافعى :

« فأما « س » فرجل كشيخ المسجد يكاد يرى حصير
المسجد حيث وطئت قدماه من الأرض . . . ذو دين وتقوى
ما يزال بهما ينقبض وينكمش ويتزائل حتى يرجع طفلاً في
الثلاثين من عمره . . . وهو حائر بائر لا يتجه لشيء من
أمر المرأة ، وقد فقه منها ما يحل وما يحرم . »

واليقين أن الرافعى كتب ذلك المقال وصاحبنا غارق في
وجدته وهواه ، فلم يكن كما وصفه الرافعى بائراً لا يتجه إلى
المرأة . . . إلخ ، ويظهر أنه كان يحنى أمر حبه على صديقه

الشيخ ويتظاهر أمامه بأنه «خام» فصدق الرافعي ، كما صدق أن الراقصة تقضى الليل في العبادة والصلاة والتسبيح .

ونستطيع أن نلمح في نفس مقال الرافعي عن سعيد خيال الحبيبة التي كاد هواها يطير بعقله . . . يقول «س» :

« وأى عقل تراه في رجل عزب يقع في خياله أنه متزوج ، وأنه يأوى إلى " فلانة " وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته وأنه من أجلها كان عزوفاً عن الفحشاء ، بعيداً عن المنكر وفاء لها وحفظاً لعهد الله فيها ، وقد دلهته بفنونها التي يبتدعها فكره ، وهي ساعة تؤاكله على الخوان وساعة تضاحكه ، ومرة تعاتبه ، وتارة تجافيه ، وفي كل ذلك هو ناعم بها ، يحدّثها عن نفسه ، ويسمر معها ، يحدّثها عن نفسه ويتصنع لها وتتصنع له ، ويعاتبها أحياناً في رقة ، وأحياناً في جفاء وغلظة ، وقد ضربها ذات مرة . . . »

ولعل خياله جمع إلى ضربها تشفياً من أبيها وانتقاماً من «التقاليد» ولا بأس فهو مجرد خيال . . .

وأوحت نار البعد إلى صاحبنا في تلك الفترة من حياته عدة مقالات نشرت في السنوات الأولى من حياة مجلة الرسالة ، عدا ما نظمه من الشعر الذي لم ينشر ، منها قصة «تقاليد» التي تقدم ذكرها .

وكان يلقاها في مكان من منزلها ، وبعد أن حالت بينهما التقاليد مر يوماً بالدار فوجد جزءاً منها قد هدم وأنشئت مكانه قهوة ، ورأى كرسيًا هناك وترايزة في نفس الركن الذي كانا يجلسان فيه ، فحدثته نفسه أن يجلس ويطلب شيشة يصعد بها أنفاسه الحرى . . . ولكنه تخرج من هذه الجلسة وخشى أن تظن به الظنون . ثم كان مقال « دار وحبيب » الذي نشر بالرسالة في أبريل سنة ١٩٣٥ وفيه يقول : « فأين يومك من أمسك يا دار ؟ أما يومك — وا أسفاه — فهذا الذي أرى : كومة من أحجار إلا جداراً يريد أن ينقض ! وأما أمس . . . هل تذكرين يا دار . . . ؟ »

ثم وضعت « التقاليد » أوزارها ، وأعلنت السلام ، وتم عقد القران سنة ١٩٣٦ ، وقضى الحبيبان سنتين في سعادة اللقاء والأمل في اليوم القريب : يم الزفاف ، وتحقق الحلم بعد السنتين وتم الزواج ، وها نحن نقرأ بعد سنة منه مقالا في الرسالة عنوانه « دعيني أنام » وفيه يقص قصة غرامه منذ كانا صغيرين يلتقيان ، يتحدثان حيناً ، ويطرقان حيناً آخر ليتبادلا الأفكار صامتين « فما كانت بي حاجة لأحدثك عما في نفسي ، ولا كانت بك حاجة ، وتفاهمنا على صمت ، ونظرتُ في عينيك ونظرت ، فتضرمت وجنتاك من جياء ، وأحسست

يديك تختلج بين يدي »

« ولما ضرب الحجاب بيننا وقامت دونه التقاليد ، تلفت القلب ينظر ، ولزمت الوحدة أياماً أعرض ذكريات الماضي ولهفة الحاضر وأمل المستقبل . . . »

« وتلاقينا مرة على ميعاد . . . هل تذكرين يا عزيزتى ؟ وجلست أقرأ لك فصلاً بليغاً من كتاب كان معي ، فتندت عيناك بالدمع ، إننى ما أزال أذكر ذلك كأنه كان أمس ، على أن بينى وبينه عشر سنين . . . لقد قلت لى يومئذ كلمة ما زال صداها يرن فى أذنى :

« يا عزيزى ليس فى البشرية كلها من يقدر على خلق المعجزة التى تهز النفس من أعماقها غير الأديب البليغ ! »
« فجهدت جهدى لأخلق المعجزة التى تهز النفس من أعماقها ، ولم أذق طعم الكرى من يومئذ . »

« ليت شعرى ، هل جاءك - وبينى وبينك حجاب التقاليد - نبأ ما كنت أبذل من أعصابى ومن دمي فى سبيل الغاية ، حرصاً على أن أكون يوم اللقاء كما تريدان أن أكون ؟ »
« عشر سنين من عمر الشباب وأنا أخرج للناس كل يوم جديداً فى الأدب إلا يكن من إلهامك فإنه بسبيل إلى تحقيق أملك . »

وذلك يدلنا على الأثر العميق لهذا الحب في خلق هذا الأديب الذى جعل الأدب خمرة ، يزيل بكأسها همومه ، لقد لازمته اللوعة طوال حياته منذ عرف الحب فى أول شبابه لم تفارقه غير أربع سنين ، وهو من هو فى دينه وعذرية هواه ، فلم يجد متنفساً فى غير الأدب وكثوسه المرعة .

وقضى الزوجان الحبيبان نحو أربع سنين أنجبا فيها ابنتين ، ثم أسلمته الثالث ساعة ولادته ورحلت . . . كانت هذه الفاجعة فى يناير سنة ١٩٤٢ وكان قد بدأ يكتب فى مجلة الثقافة باب « الصحافة والأدب فى أسبوع » بتوقيع « قاف » وليس فى اسمه « قاف » ولكنه كان « يقفو » ويتبع ما يكتب الأدباء والصحفيون . وانقطع عن الكتابة ثلاثة أشهر . ثم استأنفها فى مايو ، فكتب فيما كتب : « . . . فأنا من ذلك الماضى القريب كالمستيقظ فى أعقاب حلم ساحر ، كان حقيقة تسعده فصار وهماً يشقيه ، فليس نور النهار فى عينيه إلا ظلمة متدجية تضرب بين حيتين من عمره بسور ليس له باب ، من ورائه ركام من الذكريات وحطام من الأمنى وأشتات من الأباطيل والأوهام » .

وأصبح سعيد ، إلى جانب فاجعته فى حبيبة العمر ، أباً وأمّاً لأطفال ثلاثة ، وطالما قضى الليالى جاثياً بجانب فراش

الطفل الذى خلفته الراحلة قطعة من اللحم ، يدل صراخه على أنه كائن حى . . . يطوى كتابه ويسرع إليه يهدده برفق « وفى القلب وجيب وفى العينين دموع ، وأغرائى سيكون الليل بالنجوى ، فرحت أبث الطفل من وجدى وما به أن يسمع ولا أن يجيب ، واستجابت لى عيناي ! يا لك يا بنى من الدنيا ويا لى . . . ! »

هكذا كان يكتب فى الثقافة فتسيل على صفحاتها دموع القراء ، حتى اتهمه المرحوم أحمد أمين بأنه يعذب قراء المجلة ! ويتناول الصحف فيقرأ :

« رعاية الطفل » ، « حماية الأمومة » ، « إنقاذ الطفولة المشردة » ، « المولود والوالدة » ، « بيت الطفل » ، « مستشفيات الأطفال » ، « الإصلاح الاجتماعى » ، « الشؤون الاجتماعية ! . . . »
وكأن هذه العناوين قد اتفقت على أن تواجهه فى الليل ليصبح فى الصباح يبحث عن تلك المنشآت « أما واحدة فلا تقبل الرضّع ، وأما الثانية فليس فيها مكان لطفل دون الرابعة ، والثالثة تؤوى من تشاء ولكن ليس فيها مراضع ، والرابعة فيها مكاتب وأبهاء للمحاضرات العامة تزينها صور الأعضاء . . . »
وقالت الخامسة وهى أعظم المنشآت الحكومية ، نحن على استعداد لقبول الطفل بالمجان على أن تتنازل عن حق أبوته ،

فإننا لا نؤوى إلا اللقطاء من مواليد صندوق القمامة . . . »
 وعاد الأب من طوافه إلى أولاده في المساء يعتذر إليهم
 بأنه كان في سياحة بين طائفة من « عناوين » الصحف
 والمجلات !

ويمضى « قاف » لا يقصر قراءته على الصحف والمجلات ،
 وإنما يقرأ إلى جانبها صفحات أيامه وفصول حياته التي هي
 فصول حبه الذي أصبح دامياً . . . فراح يبكى ويكتب ،
 والقراء يقرأون ويبكون . . . ولا أريد اليوم أن أبكى قراء هذا
 الكتاب بتتبع ما كتبه عن شعوره في أول مرة يأتي فيها المغرب
 في رمضان ولا يجدها إلى جانبه على المائدة ، وما كتبه في
 أول عيد وصور فيه أحزانه وحرمان أولاده أعز- ما يكون
 للأطفال . . . إلى آخر ما كتب بدموعه وأسال به الدموع .
 فلقد كان ذلك ، وهو يكون كتاباً في هذا الموضوع
 لم يطبعه بعد ، أول عمل أدبي من نوعه في الأدب العربي
 قديمه وحديثه .

وكان عبد الرحمن صدقي يشارك من يلومونه على الاسترسال
 في هذه الكتابة وتعذيب القراء بها ، ثم لاقى نفس التجربة ،
 وأخرج ديوانه « من وحى المرأة » الذي صور بقصائده أحزانه
 لوفاة زمرته . وبعد سنين أهدى عزيز أباطه إلى سعيد أول

نسخة أخرجتها المطبعة من ديوانه « أنات حائرة » معبراً بذلك عن تجاوبه معه وتماثلهما في الفاجعة ، إذ توفيت زوجته ورثاها بهذا الديوان .

ونستشف من كتابة سعيد في هذا الموضوع أنه يرى أو يشعر أن حياته منذ أن أحب حلاًماً لم تقطعه إلا فترة العشرة القصيرة ، وهو مستمر بعدها حتى الممات « لقد ذهبت فلا سبيل إليها بعد ، وتبددت الحقيقة التي بت أحلم بها بضع عشرة سنة ، فليس في يدي إلا ذلك الحلم ، ولكنه حلم مديد ، مديد إلى آخر الدهر ، لا يقظة منه إلا يقظة الآخرة . » وهو كان يتمنى لو لم يكن اللقاء . . . ليتصل الحلم . . . ولكن لا ، فقد ظفر بابنته الكبرى . . . إنها صورة من أمها عوضه الله بها ، فهي حبيبته وابنته . . . وقد قامت بدور الأم نحو أخويها الصغيرين ، وهل كان يستشعر المصير المحتوم عند ما كتب مقال « ابنتي » بالرسالة حين ولادتها سنة ١٩٣٩ فقال لها فيها :

« هذه أمك يا صغيرتي ، لم تحمل ولم تلد قبل ، علميها الأمومة يا صغيرتي ، إنها لم تكن تعرف . . . »
« ورأيتك تلقمين ثديها مغمضة العينين تناول الخبير الفطن ، فأحسن الرضاعة ، وما تحسن أمك أن تُرضع !

يا عجباً ! الطفل الصغير يعلم أمه الأمومة قبل أن تتعلم هي أن تكون أمّاً .

بدأ سعيد العريان حياته الأدبية ، وهو في معمران الحب ، على صفحات « الرسالة » يثور على التقاليد ويحلم بالمتى ويأمل في المستقبل ، ثم راح يسجل حقيقة الحلم ويغنى بسعادة نفسه ، ولما فجعه الموت في هذه الحقيقة جعل يملأ صفحات « الثقافة » بالدموع ويعذب قراءها بالبكاء ، وها نحن اليوم نقص قصته ولم يعد هناك ما يدعو إلى البكاء والدموع ، فقد صار الأطفال فتاتين وفتى يتسمون للحياة في نضارة وأمل ، وصار الوالد الصابر قرير العين بهم وإن كان لا يزال يلبس الكرافة السوداء . . . لأنه يعيش على ميعاد . . .

كامل الشناوى

قضى كامل الشناوى صدر شبابه على هواه . . . ترك
الدراسة المدرسية وراح يقرأ ما يطيب له ، ويحفظ ما يطربه
من الشعر والنثر ، ويجعل للهو من أوقاته جانباً ليس بالقليل .
يلهو بريئاً أحياناً مع أصدقائه من أدباء وصحفيين وغيرهم ،
وأحياناً يطيع الشيطان الذى يوحى إليه شعر الغزل ، ويظهر
أنه كشيطان أبى نواس الذى أوحى إليه الحمريات ، فكل
منهما يريد صاحبه على أن يعلن هواه ، فكما يقول أبو نواس
لساقيه :

ألا فاسقنى خمرأً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرأً إذا أمكن الجهر

يقول كامل الشناوى لصاحبه :

دارى غرامك ما بدا لك دارى أنا بالصباية هاتك أسرارى
هيهات لا أقوى على كتمان ما باحت به عينك من أسرار

إلى أن يقول :

يا فتنة هدت الفؤاد إلى هوى
 دهنتى ودعوتنى لتجلىد
 وإذا سكت عن الحديث تجملاً
 أفديك . . . فكل جوارحى
 أفديك صامته يضحج بحبها
 قلبى وتهمس حولها أفكارى
 حلو العذاب مطهر الأوزار
 أظننتنى حجراً من الأحجار
 كيف السكوت لحسبك الثرثار
 نشوى وأحلام الصبا سمارى
 قلابى وتهمس حولها أفكارى

ولم تكن ذات الحسن الثرثار - والثرثار هنا وصف جديد
 جميل - إلا واحدة من فتيات « الدون جوان » كامل الشناوى ،
 ولا شك أن « فتنة » أخرى وثالثة وغيرها . . . هدت كل منها
 إلى هوى يستعذب فيه العذاب وتستحم به الأوزار .
 ظل كامل الشناوى يتنقل فى بستان الهوى . . . لا يلبث
 على غصن إلا ريثما تروح له زهرة . . . هذه ياسمينه . وتلك
 فلة . وهناك قرنفة . وفى الأزهار أجنيات كالبانسيه . . . حتى
 وقع فى فخ الوردية ، فأحب « روز » الراقصة اللبنانية الفاتنة .
 رآها أول مرة فى حفلة خاصة فأحس بأشعة عينها توقظ
 فيه مشاعر جديدة ، وتلقى من مفاتها الحكم عليه بالنهاية . . .
 نهاية الشاب الذى كان يقطع طريق الصبا عدواً وهو يشعر
 أنه طويل ممدود ، لم يحن الوقت الذى يتوقف فيه عند مرحلة
 من المراحل .

إذن فهذه هي النهاية ، وهي البداية في الوقت نفسه . . .
 نهاية القلب الذي كان يمتلئ ويصب . ثم يعاود الامتلاء
 والصب . . . وبداية القلب الذي امتلأ وهيئات أن يفرغ .
 إنها ليست فتاة كالفتيات اللاتي عرفهن وجرى معهن أشواطاً
 في الهوى . كانت كل منهن محطة لا يلبث عندها إلا ريثما يستأنف
 سيره . أما الآن فقد بلغ محطة الوصول .

وخرج من الحفلة مترنجاً ، يجر قلبه بين ضلوعه —
 كما كتب في مقال بمجلة « آخر ساعة » سنعرض له فيما
 بعد — وعاد إلى مسكنه لا يكاد يرى غير صورتها . . .
 هاتان العينان الحاملتان وهذه الشفة الداعية ، وهذا الصدر
 المثمر ، وهذا الخصر الناحل . . . « إنها أعجوبة هذا القرن ،
 بل أعجوبة القرون الماضية » . . . كما قال في ذلك المقال .
 كان قد سأل عنها رفاقه ، فأجابوه . . . وذهب إلى
 الكباريه الذي تعمل به ، ورآها . . . وأرسلت إليه من عينيها
 وميضاً يحاول أن يتقيه ، ولكن سحره ينخدره . . . ثم يقول :

عيناك عيناك نامت في جفونهما	مفاتي أيقظت ليلي وأعصابي
مفاتي أتقيها وهي نائمة	فلا أحاول أذكها بإعجابي
أصد عنك بعين غير صادقة	وبين جنبي قلب غير كذاب

يا كبريائي لقد كلفتني خطراً فيه المنايا مطلات بأنساب
تمرد الليل ... لا أغفو به أبداً حتى أرى الفجر مذبحاً على بابي !
إنه إذن في صراع بين كبريائه وهواه . . . الكبرياء تمثلها
العين بنظرها التي تحاول أن تصيد ، والهوى يمثله القلب الذي
يندفع في خفقانه لا يعرف الكذب ولا التصنع .

ولك أن تسأل : فيم الكبرياء ؟ هل كان يعتر بمناعته
ضد الحب الواحد الأسر ويرى نفسه طليقاً يتنقل بين الأغصان
والأزهار كيف شاء ، فإذا قيدته زهرة وأمسكته اعتبر ذلك
ضعفاً تأباه كبرياؤه ؟ . . .

أو أنه يلوم نفسه على أنه وقع في غرام راقصة تنثر فتنها
على الجميع ؟ . . .

أو هو يدير في نفسه اعتبار المجتمع الشرقى بأن الرجل
المحترم لا ينبغي له أن يشغل قلبه بمثل هذه الراقصة . . .
وأنه لا ينبغي له أن يفكر في الزواج منها لذلك الاعتبار ؟
كيفما كان السبب في تلك الكبرياء فإنها لا تتفق مع
الحب الصادق الذي يكتسح كل اعتبار .

على أنني لا أميل إلى مذهب النقاد الذين كانوا يأخذون
على الشاعر مثل تلك الكبرياء لأنها لا تليق بركة الغزل . . .
لأن الشاعر حر فيما يشعر به وفيما يعبر به عن شعوره ، والذي

شعر به شاعرنا هو هذه الكبرياء ، فصور شعوره ذلك التصوير
فصدق في فنه الشعري ، ولكنه كان مع هذا إنساناً أنانياً ،
والحب لا يعترف الأنانية . . . لم يكن مثل « أرمان دوفال » ،
الذى لم يعبأ بأى اعتبار في حب « مجريت جوتيه » عادة
الكاميليا . ولم يسمع صوت أبيه وهو يذكره بكرامة الأسرة
ولكن نعود فنقول : الشرق شرق والغرب غرب . ١

قال كامل الشناوى تلك الأبيات قبل أن يتم التعارف بينه
وبين روز ، ثم دعاها إلى مائدته في الكباريه . وكان معه
بعض أصدقائه ، وأخذوا في الحديث والمناورات لفتح باب
مبادلة الغرام . قال لها الأصدقاء إن الأستاذ كامل تغزل فيها
بقصيدة ضمنها حبه وهيامه . . . وأسمعها الشاء المدنف
ما قاله ، فأخذت منه ما يعنيها وهو أن الشاعر كامل الشناوى
قد أحبها . . . وأنه كتب اسمها في سجل الخلود .

وكان إذ ذاك ، سنة ١٩٣٩ محرراً بجريدة الأهرام ، فما
كان يفرغ من عمله في المساء حتى يهرع إلى من أيقظت
ليله . . . ويظل ساهراً في الكباريه يشهدها ترقص ، ويدعوها
إلى مائدته ، ويخرجان إلى هنا أو هناك .

وظلا عامين . . . تسقيه ويسقيها من خمر الهوى . . .
وانغمسا في حياة صاحبة حمراء ، وكان في فترات الصحو يعاوده

النوم وتراوده الكبرياء ، ولكنها كانت لحظات قصيرة يتداوى منها بالتى كانت هى الداء فينطلق فى جو اللهو ويغرق فيه . ويظل خلال العامين بين الإقدام والإحجام ، وبين الاستكانة والتمرد ، وفى نهايتهما يثور قائلاً :

إلام يا قلب تشكو نقض الحبيب عهوده
دع الهوان وحطم أغلاله وقبوده
يا فتنى لست عبداً ولا أطيع العبوده
ملكتنى غير نفس على الخطوب جليده
نفس من الكبر نشوى وفى الهوى عريده !

ولكنه لم يستطع بعد هذه الثورة أن يخلع « روز » من قلبه . . . فقد كانت ثورة مسلحة بالإرادة والكبرياء ، ولكن لم تكن تسندها القوى الأخرى ، تبرمت « النفس الجليدة » بأغلال الحب وثارت على طغيانه ، ولكن الفؤاد الذى ملكته كان يحب الطغيان ويستكين إلى الأغلال .

ذهب عنها وحاول أن ينساها ، ولكنه يقول :

يا ورد « روز » لم يزل فى جونا أثر من نفحها . . . آه لوعادت ليالىك

ذكرت بعدك أيامي التي ذهبت .. واشتقتها .. غير يوم خاتني فيك
يوم افترقنا على أن أراك غداً فلم أجد في غد إلا تجافيك
لولا إياي ولولا أنني رجل ... لحدثني الليالي كيف أبكيك !

وكان قد مهد لليوم الذي خانه فيها أو خانها فيه ، بالحديث
إليها في صراحة عن آلام نفسه ، حتى قال لها إنه سيتزوج
من إحدى قريباته . . . فأبدت تقديرها لظروفه وباركت
زواجه . . . فكان موقفها مشابهاً لموقف « غادة الكاميليا »
عند ما جاءها والد حبيبها يرجوها أن تجافي ولده كي يبتعد
عنها . . . فجافته فعلا عند ما عاد إليها .

وفي ذلك اليوم تركها على أن يلقاها غداً ، ولكنه لم يعد
إليها . . . وراح يتمنى لو عادت ليالها .

إنه لا ينساها . . . لا ينسى تلك النفس الطيبة المعذبة ،
ولا ينسى ما كان يلمس من آلامها واضطرارها إلى الكفاح
من أجل أطفال تركهم أخوها المتوفى ، لا ينسى ما كانت
تعبر به عن الألم لأنها مضطرة إلى أن تبسم لكل إنسان . . .
لا ينسى التي سقته كئوس الحب صافية مترعة ثم عربد
عليها . . .

كان يذكر كل ذلك ، فيعاوده الشوق والحنين ، وكاد يطيع قلبه ويعود ، ولكنه جمع أطراف « شاعريته » وقال القصيدة التي يغنيها عبد الوهاب ، وفيها يقول :

زعموا حبي يا قلب خطايا	لم يطهرها من الإثم بكايا
حسبنا ما كان فاهداً ها هنا	في ضلوعي واحتبس خلف الحنايا
ذكريات حطمتني ، ذكريات	لم تدع من أجلى إلا بقايا
ذكريات رسفت في أدمعي	وشجوني وتمشت في دمايا
كم يبنى النوم منها عجباً	فتنة يقضى ، وروحاً ، وسجايَا
ضمها صدرى ومست شعرها	راحتي وارتشفها شفتايا
وعليها من ذراعى وثاق	شده شوقي وأرخته يدايا
فإذا ما نفضت عيني الكرى	لم أجد بين ذراعى سوايا
آه من نومي ومن صحوى ومن	ساعة تعلن أو تخفى أسايا
آه منها أنا لم أدرك مداها	آه منى هي لم تدرك مدايا
حطمتني مثلما حطمتها	فهى منى وأنا منها شظايا

وهذه القصيدة تعبير صادق عن آلام الشاعر في هذا الحب ، وهى آلام ناشئة من العراك العنيف في نفسه بين الهوى الذى يملكه من رأسه إلى قدمه ، وبين الوضع الاجتماعى ، بل المسلك الخلقى للحبيبة ، الذى ألبأها الأقدار إليه . ولو أنه

كان ممن يطلبون الهوى الوقتى ويعبسون جسور الآلام إلى
لذاتهم لهان عليه الأمر ، بل لما كان هناك أمر . . . ولكنه
ينظر إلى أولئك العابرين اللاهين الذين تضطر هي إلى
مصانعتهم ومجاراتهم ويتنظر أن تفرغ لتكون له كما
يقضى الحب الأسر . . . كتب فى آخر ساعة سنة ١٩٤٧ تحت
عنوان « الشمعة المطفأة » وقد تخيل صديقاً يحدثه ، وما الصديق
إلا هو . . . قال :

« كنت أتوجس خيفة كلما رأيته تتعرف بثرى أمثل . . .
أو شاب جميل ، ولكنى كنت أعلل النفس بأن رشدتها إن
غاب يوماً فلن يغيب أبداً . وأقول إنها لن تنسى وكيف تنسى ؟
إنها إذا كانت لحناً فأنا الموسيقار ، وإذا كانت بيتاً من الشعر
فأنا الشاعر . . . وإذا كانت صورة فأنا الرسام . كنت أعلم
أن جمالها كبير وأن جمالى يكاد يكون مستحيلاً ، فأنا رجل
وهبنى الله شعوراً بالجمال ، وسلب الجمال شعوره بى !
ولكنها بالرغم من ذلك أحببتنى أو هكذا صارحتنى وصدقت
ما صارحتنى به ، وانسقت فى طريق الحب ، لا أكاد أعمل
شيئاً غير أن أحب ! »

وكامل الشناوى ، وإن كان الجمال قد عادى جسمه
الضخم . إلا أن فيه جمالا آخر . . . فهو جميل العاطفة ودود

النظرة التي تدل على ما وراءها من نفس إنسانية طيبة أريحية ،
وهو إلى هذا ظريف حاضر النكتة يجيد الدعابة لبق الحديث ،
يضحك ملء جسمه . . . فيعدى الآخرين .

وهو شاعر حزين ، ولكنه كاتب مرح ، يضمن النكتة
أكثر كتابته كما يرسلها في مجالسه . هذا هو في آخر ذلك
المقال « الشمعة المطفأة » ينهى الفاجعة العاطفية بوحدة من
نكاته ، فقد دار الحديث بينه وبينها ، وأنبها على سلوكها ،
وأبدى لها جفوته ، وقالت له :

— ألا أزال في قلبك « اللمة » ذات الألف شمعة كما
كنت تقول لى دائماً ؟

— إن « اللمة » ذات الألف شمعة لا تزال كما هي في
مكانها ، وكل ما حدث أنها أطفئت .

ثم أقبل إلى الحفلة التي كانوا فيها ثلاثة من أصحاب الملايين
فهرعت إليهم تستقبلهم وتجالسهم ويصفها معهم بأنها تبدى
لكل منهم ما يجعله يظن أنها تحبه وحده . . . ثم يقول :
« حقاً إنها أعجوبة هذا القرن » ويشير إلى رأسه . . .
« وأعجوبة هذه القرون » ويشير إلى رؤوس المحبين الآخرين . . .
وهذا المقال « الشمعة المطفأة » يصور جواً من آلام هذا
الحب الناشئة عن مسلك الحبيبة مع الرجال الآخرين . ففيه

مأساة نفسية تنظر شذراً وفي غير ارتياح إلى « نكتة القرون »
فالجو عاطفي حار ولكن هذه النكتة أطفأته . . .

والشمعة انطفأت ولكنها لا تزال في مكانها . . . ولا بأس
بعد ذلك من استئناف المغامرات « الدون جوانية » . . . التقى
في الإسكندرية سنة ١٩٤٨ بفتاة حسنة في العشرين من
عمرها كانت مع زوجها الغني المسن في الفندق الذي نزل به .
وصادق الزوجين ، وانهز بعض الفرص في انشغال الزوج ،
وجعل يتنزه مع الفتاة على البلاج ويجالسها في ردهة الفندق . . .
وشكت إليه من حياتها مع الزوج العجوز ، وقالت إنها تتمنى
موته . واستمر بينهما الحديث إلى أن قالت له :

— الآن أستطيع أن أثبك حبي !

— ماذا أسمع ؟ . . .

— اسمع . . . إنه حب عاطف جامع ، وحاولت أن
أكتمه ، فركض في ضلوعي وكاد يعصف بي !

— ماذا تقولين ؟ ما كنت أتصور هذا !

— اسمعني إلى النهاية . . . إن زوجي ليس سهلاً أو
هيناً . . . إنه غيور ، غدار ، لو أنه عرف من أحبه لذبحه
علناً ، ولهذا لم أجازف بإعلان حبي !

— بل جازفي . . . إن من تحببته لا يبالي . . .

— إنه يقول ذلك فقط !

— بل إنه كذلك فعلاً

ولمّا الزوج مقبلاً ، فأمسكاً عن هذا الحديث . . . ولم
ينم ليلته . وفى اليوم التالى بعد أن صفا من نومه أو من
صحوه . . . وجدها جالسة مع شاب . ثم سأها عن ذلك
الشاب فقالت :

— حسبك تعرفه . . . فقد حدثتني أمس عن شجاعته ،

وقلت لى إن الذى تحببته لا يبالى ؟ !

وأعتقد أن شعر كامل الشناوى أصدق من كتابته فى
التعبير عن حقيقة نفسه . وأريد أن آخذ من هذا أنه حزين
فى أعماق نفسه وإن كان فى ظاهر حياته مرحاً ضحوكاً .
فهو عند ما يتهاى للشعر يغفو شعوره الظاهر الضاحك ،
فيتصل بشعوره الباطن الحزين . وهو فى ذلك مثل حافظ
إبراهيم الذى كانت كل مجالسه ظرفاً ودعابة وكان نصف
شعره رثاء

ويهمنا من ذلك ما يتصل منه بالحب إذ يلوح لى أن
حبه لروز وما لابس من آلام ثم هجران ، قوى فيه طبيعة
الأسى وبعث فى نفسه الشعور بالشقاء ، حتى جعل يتساءل
عن حياته ومعنى وجوده وإلى أين تمضى به الأيام . . . احتفل

يوم ميلاده مرحباً مع الأهل والأصدقاء ، ثم خلا إلى عقله
الباطن فأوحى إليه أن يقول :

عدت يا يوم مولدى	عدت يا أيها الشقى
الصبا ضاع من يدى	وغزا الشيب مفرقى
ليت يا يوم مولدى	كنت يوماً بلا غد
ليت أنى من الأزل	لم أعش هذه الحياه
عشت فيها ولم أزل	جاهلاً أنها حياه
ليت أنى من الأزل	كنت طيناً ولم أزل
أنا عمر بلا شباب	وحياة بلا ربيع
أشترى الحب بالعذاب	أشترى به ففن يبيع
أنا عمر بلا شباب	أنا وهم أنا سراب

ولو أنه أحب واحدة غير روز مثل الحب الذى أحبه
إياها ، واحدة لا ينازعها فى حبها إباء ولا كبرياء ، لتزوجها
وأنجب منها بنين وبنات وعاش معهم فى التبات والنبات ،
لا يتركون له فراغاً يتمنى فيه أن لم يكن ، أو يشكو الدهر
ويسأله أين يمضى به . . . كانوا يحققون وجوده فى شعوره
فلا يتوهم أنه سراب . . .

وراح المحب الهاجر يقسر نفسه على البعد ، ويا ويل قلبه

العذاب . . . إنه يمعن في البعد عنها ولكنه يجدها في الحنايا « أينما سار . . . يقول لنفسه في حزم « تعلم كيف أكره » ولكنه لا يتعلم . . .

كتب في « آخر ساعة » سنة ١٩٤٨ يدعو إلى « الكراهية » يحاول أن يدلل على أنها توحى بالفن كما يوحى به الحب ، قال : « أنا منذ اليهم أكره ، وستكون كراهيتي فناً جميلاً . . . جميلاً مثل عينيها ، مثل شفيتها . . . مثل شبابها الحاد . . . وقوامها المرهف ! كلا لم تعد جميلة ! وليس صحيحاً ما تدعيه عيناها وشفاتها وشبابها الحاد وقوامها المرهف ! »

وما أراه إلا مدلتها - ولو في باطنه - بعينيها وشفتها وشبابها الحاد وقوامها المرهف . . . هل تصدق روميو إذا وقف تحت نافذة جوليت ليناجيها قائلاً : أنا أكرهك يا خبيثتي ؟ ! ويقول شاعرنا كامل الشناوى :

لا وعينيك ... يا حبيبة روحى لم أعد فيك هائماً فاستريحي
والفؤاد الذى سكنت الحنايا منه ... أودعته مهب الريح

ثم نتبين في آخر القصيدة أنه لا يحلف بعينيها وإنما يتغزل فيهما ، وأنه لا يزال هائماً . . . إلخ ، فيقول :

لا وعينيك ... ماسلوتك عمرى فاستريحي وحاذرى أن تريحي

وحاول صاحبنا أن ينسى الحب بالحب ، ويفل الحبيب
 بحبيب آخر . . . وأغرق في الحب الحديد إلى حد نية
 الزواج . . . وكتب عن ذلك أخيراً في « الأخبار » : « لقد
 حاولت الزواج مرة واحدة . . . وخيل لي في فترة المحاولة أنني
 أركب طائرة حلقت بي في الجو ووقفت كل محركاتها ، وكنت
 أتلفت يميناً وشمالاً أبحث عن البراشوت لأفتحه وأهبط به إلى
 الأرض في سلام ! وهبطت إلى الأرض فعلاً . . . »
 لقد توقفت المحركات لأن روز التي قطع ما بينه وبينها ،
 كانت في الحنايا . . .

وهو يضحك ملء جسمه الممتلئ ، يضيف على من معه
 مرحاً وظرفاً ، يريد أن ينسى ، ولكن الضحك يذهب في
 الهواء والمجلس ينفض ، وروز وحدها ، روز التي قضى على
 نفسه بالحرمان من قربها إلى الأبد ، روز في الحنايا . . .